

طبعة ثانية مزيدة
حسين المحروس
مريم
سيرة الخضاب والنسوة اللواتي ضاعت أسماؤهن

مريم



سيرة الخضاب والنسوة اللواتي ضاعت أسماؤهن

حسين المحروس



2015

مريم: سيرة الخضاب والنسوة اللواتي ضاعت أسماؤهن

حسين المحروس / كاتب وفوتوغرافي

الطبعة الثانية 2015 (مَزيدة)

الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-99958-70-29-4

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة
د.ع. 11792 / 2013



مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

ص.ب: 65317 المنامة، مملكة البحرين
هاتف: 221 177 77 973+
فاكس: 212 177 77 973+
البريد الإلكتروني: info@masaapublishing.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.masaapublishing.com

خطوط الغلاف: عباس يوسف
التصميم والإخراج الفنّي: حسين المحروس
صورة الغلاف: مريم بنت محمد السقّاي تخضّب عروسا

للتواصل مع الكاتب hmahroos@gmail.com

الفهرس

إلى
مريم ومريم وفاطمة

الاسم

النساءُ لا يحتجنَ إلى أسمائهن.

أخذتْ جدتي مريم الخِضَابةَ عن امرأة ضاع اسمها. كانت أسماء النساء تضيع. قيل إنّها أبرع خاضبة في البلاد وأن جدتي التقت بها. يسمونها «أم حجي إبراهيم»، وأنّها من المنامة وأنّ عيسى بن مريم «جدتي» رآها تخضب نساء الحيّ قبل أمّه.

الثانية تلاقفت النساء اسمها فبقى. طالما نافس اسمها كنيتها نسبةً لولدها «أم عبود». ولولا النساء لضاع اسمها. هي صديقة جدتي وتكبرها بسنوات، برعت في تهيئة مكان العرس «فرشة العروس» وأسراره الأولى، وأنّ جدتي التي أخذت ذلك صريحاً عنها، كانت شابةً تساعدها. هي «مريم بنت سلمان السقّاي». زعيمة متفردة في الحيّ، ذات رأي طالما فرضته على الرجال. فلما رحلت أعاد الرجال الاعتبار لآرائهم.

الثالثة ضاع اسمها في الحنان والرأي وأناقة اللباس والمكان والكلام. أفردوا لها اسم «عموتي» تدليلاً وتمييزاً لها

عن «عمتي». ذات رأي لا يلتفت إليه الرجال. تقول ولا تفرض. هي مريم بنت يوسف. دخلت الحيّ عروساً فما غادرتها أناقة العروس. أقرب الصديقات لجدتي وهي أيضاً آخر الصديقات. ترمّلت فغادرت الحيّ ثمّ عادت وصار اسمها وقلبها بين مكانين: الأوّل نسي طفولتها والثاني تنكّر لاسمها.

ولكثرة ما في حياة جدتي من النساء المريمات قيل: لو كانت اسم «أم حجي إبراهيم» مريم لما ضاع.

الرجال يخجلون من ذكر أسماء بناتهم، يتوارون خجلاً عند زواجهن وحملهن وولادتهن والأمهات من النساء المتعبات ينتظرن ولادة ذكر يُسمين وينعتن به، يزاحم اسمه أسماءهن ويظهر عليها. تسرّ الأم عندما تُنادى باسم ولدها وتهتم بمَنْ ناداها به وتلتفت إليه وتصغي. يضيع اسمها تقريباً ومنْ يعرفه لا يذكره في حضرتها، ومَنْ يجرؤ على ذكره تهبط مكانته. يضيع اسمها فلا يُستدل عليه ولا عليها ويبدأ البحث عنه بـ «أظن اسمها..» أو «ربّما اسمها..» أو «يمكن اسمها..». يكون اسمها: أظنّ، وربّما ويمكن ولعلّ.

وحين تموت امرأة في الحيّ وتُحمل على النعش ويستعجل به وبها حمّالون يقصدون أقصر الطرق إلى القبر،

يستفسرُ شخص -صادف طريقه مرور الجنازة- عن الميت فيقال له: «امرأة» ولا شيء غير ذلك. لا يقولون له اسمها، ولا عمرها، ولا سبب الموت، ولا شيء من وجع الحياة وحصارها في البيت ولا عن قلقها حين يتأخر واحد من صغارها وقد غربت الشمس. ولا شيء عن يقظتها كلّ صباح تهب الحياة للبيت كلّه. ولا عن سهرها نجمةً جوار مريض. ولا شيء من كلامها، لا شيء من سيرتها بالمرّة. مثل معجم -فيه الحياة كلّها- يوضع قسراً في كلمة.

ما كان عيسى بن مريم «جدتي» يعرف اسم أمه. يسمعهم ينادونها «بنت محمد» كثيراً ولا اسم غيره حتى سمع امرأة مصادفةً تتحدث عنها وتقول إنّ اسمها «مريم».

كان يمكن ألاّ يكون مزاج المرأة جيداً فلا تنطق بالاسم. كان يمكن ألاّ يتواجد أبي في الوقت والمكان المناسبين فيخسر دهشة معرفة اسم أمّه لأوّل مرّة. النساء لا يحتجن إلى أسمائهن داخل البيت، ولا ينادين به في خارجه.

حدثني أبي قال: «عندما عرفت أنّ اسم أمّي «مريم» عدت إليها في البيت ركضاً، تلوتُ عليها اسمها وأنا بين النَفَس والنَفَس فضحكت».

كانت أسماء النساء تضيع إلا اسم مريم.

سَاقي النسب

شجارٌ صغير بين صبيين كشفتْ فيه امرأة غاضبة بحنان للطفل عيسى بن مريم نسب والدته، ما كان يعرفه من قبل ولم يسأل عنه. لديه أمّه وهو وحيدها. لا يبحث الأطفال عن أسماء أمهاتهم. الأم النسب كلّه، ولا معنى للاسم أو للنسب في غيابها.

تحيّنَ الصغير عيسى بن مريم الفرصة في الطفل «عزيز» حتى واجهه في مكان نال فيه منه وانتقم، غادر الضحية وما لبث أن عاد تمسكه والدته معلمة القرآن زهراء الماضي، تجرّه وهو يتثاقل إلى الأرض ولا ينظر في وجوه الصغار. ويل لصغيرٍ جاءت به أمّه تذوذ عنه وتحميه. لا يذهب ذلك من ذاكرة الصغار. سيكون الحدث أكبر من سببه، وسوف يُوصم به وبها، وينعت بنعوت تعلق في ذاكرته وسيرته. فلمّا اقتربت بجسدها الطويل من عيسى بن مريم وصخّ الصغار من حوله ترقباً للفعل، رفعت إصبعها نحوه، قالت:

– شوف يا ولد مريم بنت محمد السقّاي إن مددت يدك

مرة ثانية على ولدي إلا بتشوف.(1)

قصّ الطفل على والدته ما حدث، وأن أم عزيز قالت له: يا ولد مريم بنت محمد السقّاي. فضحكت جدتي وقالت:

– إي. صدقت. كان أبي يسقي الناس الماء. يرتاد العيون خارج الحيّ يحمل الماء على جمل ناضح للناس والمساجد والمآتم في مناسباتها. وهذا اللقب «السقّاي» حصر عليه، فهو من بيت يوسف مليس أو الأدرج في شرق الحيّ. هو وحده الساقي والسقّاي. مات أبي شاباً. هذا شأن مَنْ يحيي الناس بالماء. استوحشت والدتي آمنة بنت حسن المكان بعد رحيله فعادت للعيش في بيت أخيها منصور السلاطنة في غرب الحيّ. ولأنّ النساء لهن عملٌ في الوقت، أخذها الماء إلى الماء فصارت «تمطّر» بيوت أهلها ومساجد ومآتم بالماء، تحمله إليهم على رأسها وهي البصيرة. رحم الله مَنْ سقى الماء وهو على الماء.

روى عيسى بن مريم قال: «دخلت البيت بعد يوم عمل مضنٍ في النجارة فوجدت والدتي حزينة جداً فسألت عن ذلك فقيل لي إنّ قريبها جعفر الأدرج توفي في حادث وهو في الطريق إلى عمله في شركة النفط «بابكو». وكان جعفر نفسه

1- شوف: انظر. و«إلا بتشوف» تهديد ووعيد

يحذر ولده عبدالله:

- ياولدي إذا جاءت سيارة الشركة لا تركب فيها وهي تمشي. إياك أن تفعل ذلك.

لكنّ الحذر قد لا يعمل في المحذِّر نفسه. فبينما يحاول جعفر ركوب السيّارة الطويلة من نوع «تيلر» مكشوف وهي تمشي ببطء سقط أسفل عجلاتها الكبار وقضى. امتلأت المقبرة بالناس وضجّوا لرحيله. صار الابن «عبد الله» يحكي للناس كيف كان أبوه «جعفر» يحذره من سيارة شركة النفط».

عرف «عيسى» نسب أمّه مرتين: مرةً وهي تضحك وتسرد وكان النسب يفيض بالماء الكريم، ومرّة وهي تبكي شاباً يرحل في الصباحات مثل حمولة زائدة في النسب.

المزهرية

الأماكن في بيتنا بأسماء النساء.

أربعة «بَرسْتجات» من سعف النخيل: جدتي مريم، أمي، عمتي الأرملة، وزوجة عمّي القلاف، لكلّ واحدة «بَرستج» وهو حجرة تُصنع من سعف النخيل، كلّ جدار فيها يسمونه «رادّة». عُرُشٌ أربعة لكلّ عائلة عريشها الصيفي وهو مجلسها أيضاً، أرض عارية مكشوفة للقدمين، لأصدقائي الصغار الحفاة، للدجاج، ولست بطات. المساحات المرصوصة جيداً والداكنة أكثر من الأرض علامة على أنّها ممراتنا وطرقنا في البيت، لا يغيّرها إلا مزاج شخص ملّ المطروق من الأرض أو طفل جديد في البيت. في شمال البيت مغتسل فيه صنبور ماء واحد مكشوف على السماء، مستور بالنخيل الباسقات وعفّة الناس، مكان نسميه مطبخ تارة، وتنوراً تارةً أخرى، الرؤية تنعدم فيه ساعة الطبخ بدخان نار تشتعل في الخشب، والرماد بين الأثافي سنوات جدتي مريم وأمّي. تتدلى «مِلّالة» واحدة من سقف عريش جدتي مريم مثل الثريا لكن بلا كهرباء، نحفظ فيها الطعام اليومي عن القطط وكلّ ما يمشي ويدبّ على الأرض وهو

كثير. لا كهرباء في البيت ولا يخزن طعام ليوم آخر.

في جنوب البيت غرفة أسفل عريش والدي المطلّ على دكان البزّاز، لا تركبّ جدرانها الخشبية إلاّ في الشتاء ثمّ يفككها والدي فتختفي وتصبح الجزء المظلل من الحوش الكبير المكشوف؛ لذا نسميها «طيارة». حمام من الخشب. وكرسي يشبه تلك التي في المقاهي الشعبية إلا أنّه أقلّ منها إتقاناً وليس مطلياً، ظهره في مقدمة «برستج» أمّي، مَنْ يجلس عليه يرى أكثر الحوش ويستمع للأحاديث العجِلة، فلا وقت للكلام الكثير. هذا هو بيتنا. نحن نسميه بيتاً.

لون بيتنا واحد: لون سعف النخيل الجاف القديم بجرائده المنخورة. بيتنا صورة فوتوغرافية عتيقة. كنت أظن لفترة غير قصيرة أنّ لون جلدنا يأتي من لون البيت الرطب. وحين يسقط المطر نقفز خفافاً مثل جنّ فوق أسطح «البرستجات» المنحدرة جداً نغطيها بالبوليثين منعاً لتسرّب الماء إلى الداخل. كنّا ننجح قليلاً. تتغيّر لون البرستجات من الرمادي إلى الرمادي الرطب المائل للبني. نسمع اللحظات الأولى لمسّ المطر سعفَ النخيل اليابس في جدران البرستجات: طقطقات خافتة جداً مثل تلك الأصوات التي تنبعث من أرض يبست فجاءها الماء بغتةً. السعف القديم فَقدَ خاصيته الشمعية التي لا تسمح لنقطة الماء بالتوقف على

خوصه الأخضر. صار يشرب نصف كلّ نقطة ماء تسقط عليه وتتحرك خوصاته في اضطراب للخارج والداخل. يتغير لون البيت، سماؤه وأرضه ونسميه: لون المطر. تلوذ البطات الست بأسفل السلالم الخشبية حيث ينكسر المطر فوق عتباتها وربّما تحت عريش جدتي مريم القريب من حوض الماء. وعندما يتوقّف المطر وتظهر الشمس نسمع أصواتاً للبرستجات غير تلك التي نسمعها حين سقوطه.

في داخل «البرستجات» قليل من الحاجيات وكثير من الحياة. جدرانها من السعف أيضاً إلا «برستج» أبي فجدرانه الداخلية من الخشب الخفيف البني اللامع الناعم يسمّيه النجارون «ميسنيت». حمام صغير نسميه «مسبح» تشاركنا فيه دجاجة البيت، تحضن بيضها في «كارتون» ضيّق حتى موعد فقس البيض. لا مرايا معلقة على الجدران ولا صوراً. لا شيء على الجدران بالمرّة ولا نرى وجوهنا إلا في مرايا الحلاّق أو على سطح ماء البحر. ليس في البيت إلاّ ما هو ضروري للحياة.

في بيتنا الخشبي الصوتُ عن ألف صورة.

كلّ شيء حيّ في البيت يمكن أن يُسمع حتى الكائنات قصيرة الحياة. الجمادات لها أصواتها بين الشمس والقمر وبين

الحرارة والرطوبة. الليل غابة الأصوات والجيران شركاء الحاجات والبيوت ليست أسراراً. يهدأ البيت بعد العشاء ويهدأ الحيّ كلّه إلاّ من أصوات غسل أواني العشاء وأصوات نساء، الصبح لديهنّ شأن آخر.

وكثيراً ما نهض أخي «رضي» قبل انتهاء طعام العشاء بقليل فأنهض معه. يسألوننا: إلى أين؟ فنردّ: نذهب لنبول قبل النوم! نخرج صغيرين، مسرعين، نركض بخفّة الجنّ من الباب الشمالي، نبول واقفين على جدار بيت جارنا الشيخ ونعجّل في المشي إلى نادي الحيّ، نادي النعيم الثقافي، نشاهد التلفزيون: ياسلام، أيّ سحر في هذا الصندوق المضيئ؟ يستحقّ هذه المغامرة الصغيرة وقليلاً من الكذب. وعندما يحين وقت العودة نرجع راكضين لشدّة الخوف من ظلام الطريق. الجنّ يخافون أيضاً.

الحشرات في الليل حفلات للأصوات والنغمات نداءات وتزاوج ودفاعات: صرصرة وأزيز وفرقعات ونقر وقرع. وربّما تخيف حشرة أخرى بصوت مرتفع فنقترب نبحث عنها. نسمع أصوات القادم من بعيد: شخصان يقطعان الحيّ بالكلام، كلّما اقتربا علت همهمتهما ثمّ تعاود في الانخفاض كلّما ابتعدا. ويكون للمشي صوت مختلف من شخص لآخر. أصوات الديكة والدجاج وهي في آخر رمق من نشاط

اليوم، تستقرّ على مكان تنام فيه، فلها في البيت ما لنا: الحوش ومداخله ومضايقه وزواياه الكثيرة. وتزيد علينا بالنوم فوق حواف البرستجات العالية كما نراها. وفي ليالي الشتاء نصغي لصوت أمواج البحر القريب من البيت وأصوات النورس الحرّ يعبر السماء وميضاً أبيض بين قطع الغيم باتجاه البحر. يخيفنا صفير الريح وتخيفنا أصوات النخيل وضربات سعفها في الريح العاصف في الشتاء. نباح الكلاب وهي تخطف في الجري إذ قلّما توقفت في الحيّ واطمأنت. هذا حيّ لا يطمئن فيه غريب. وربّما أصوات شجار أخير في بيت بعيد لا يحتمل أهله تأجيله للصباح. فشجارات الأزواج فاتحة السرير. والقلب في الليل ليس هو في الصباح.

تتصل ظلال الأشياء بعضها ببعض وتشكّل أشباحاً جديدة ومخيفة لصور حيوانات مبتكرة. نتحرك فنظنّ أنّها هي التي تتحرك فنخاف أكثر ونخاف أيضاً من القمر. واحد من هذه الأشباح منعني من الذهاب إلى الخباز القريب من بيتنا مرّات. لم يتغيّر شكله قطّ ولا مكانه، وكنتُ وحدي الذي أراه كلّ ليلة؛ لذا لم أخبر أحداً عنه، خشية أن يقول أنّه لا يراه. هذا وحشي أنا.

يتغيّر لون البيت عندما تأذن جدتي مريم أو أمّي للـ«الحجّامة» بالدخول إلى بيتنا. وهي امرأة من «الشرشن»

وهم من غجر فارس، استوطن بعضهم البحرين. تحمل «الحجّامة» بضاعة في كيس قماش كبير على ظهرها، تلبس ثوباً واسعاً مشجراً مزيناً وحلياً كبيرة وتتحدث بفارسية وعربية محلية صعبة الفهم. وما إن تدخل بيتنا وتفتح الكيس الكبير وتعرض بضاعتها حتى يتغيّر شكل الحوش. دكان بأكمله تحجمه في ذلك الكيس وتجول به الأحياء مشياً. ربّما تشتري جدتي منها مقصاً جديداً تضيفه لأدوات خياطتها المتواضعة. ربّما تشتري أمّي مشطاً خشبياً ومجموعة أبر خياطة. ربّما تنادت نسوة الجيران وتجمّعن حولها في بيتنا وأحطن بها إحاطة سوار الذهب بمعاصمهن. ينظرن إليها وكأنّها هبطت من السماء؛ لذا كانت كلّما هبطت وجدت النساء عندها جديداً، يتحدثن عنه في يوم مختلف. كنّ يفهمن لغتها على اختلاف نطقها للكلمات. وربّما وعدت إحداهنّ بإحضار ما طلبته في الزيارة القادمة. تغيب شهوراً لكنّها تفي بوعدها ولا تنسى ولا تخطىء البيت ولا المرأة. تدهشني ألوان المبيعات وهي تخرجها من الكيس في بيت لونه واحد. لكنّي لا أجرؤ على لمسها. سوف تزجرني بلسانها وبعينيها اللتين تبرقان من قناع أسود ذي لمعان ذهبي وأصفر على وجهها نسميه «بطّولة» تتقنّع به «الحجّامات» وربّما نساء قديمات منحدرات ومتحولات من الساحل

الغربي لبلاد فارس إلى البحرين، يخفي ما بين الجبين إلى الذقن إلا العينين وقليلاً من الوجنتين.

تبدو «الحجّامة» من الخلف وهي تغادر خيمةً تمشي في الطريق. عيناها على أبواب البيوت فربّما انفتح واحد لها. في الطريق يشاغبها شاب نذل لا يكترث بمكانتها عند النساء، يسألها بصوت عال من بعيد: «حاجوم ملوك عندك مقص شيرازي؟» عبارة «مقص شيرازي» تعني أعضاء المرأة الجنسية، فتستدير له سريعاً وتنهره وترميه بكلمات لا يعرفها، لكنّه يعرف جيداً أنّها شتيمة مركّبة.

حين ينزل المطر يبتلّ البيت ويصبح مسرحاً للرائحة. لجدران البرستجات «الرادات» المصنوعة من سعف النخيل المعقود بالحبال رائحة ورق الشجر اليابس المخمّر في الماء. رائحتها تقبض. رائحة البطات الست تشبه رائحة العصافير حديثي التفقيس. تبتلّ ثيابنا وتجفّ علينا وتكون لنا رائحة المطر. تتداخل الروائح في البيت كلّه ولا نقوى على وصفها باسم واحد غير «رائحة المطر». تتركز الروائح في داخل البرستجات وتتخمّر أياماً بعد توقف المطر. تعود الألوان لما كانت عليه قبل المطر إلاّ ألوان ورد المزهريات تذهب بلا رجعة إن أصابها الماء. هذه المزهريات الوحيدة التي تموت بالماء بعد أن ترمي كلّ ما فيها من لون. يسيل

لونها مع الماء فتبهت وتيبس وتقسو.

الضوء في بَرَسْتَج جدتي «مريم» يقف عند عتبة الباب. الرؤية في داخله ليست للعيون. وفي الليل يغطّ البيت كلّه في الظلام، إلا من أربع «فنرات» تضيء بالكيروسين، لكلّ برستج «فنر» تشعل قبل أذان المغرب وتطفأ بعد العشاء فيصبح البيت كهف ظلام تحرسه نخيل باسقات في دالية شرق البيت كلّما هبت رياح الشمال في الشتاء وقفت النساء ينظرن نحوها يتحدثن عن الجهة التي سوف تسقط عليها، تقول واحدة:

– أستغفر الله سوف تسقط هذه الجهة!

– لا. أستغفر الله سوف تسقط تلك الجهة «ترد عليها الثانية».

غادرنا بيتنا واختفى خشبه في لحظات وبقيت النخلات في موضعها شامخات صامدات. النخيل أكبر من التوقعات.

يبكّر بيتنا بالعشاء خشية هبوط الظلام كلّه، ويستعير فنراً واحداً يوضع على مرتفع قريب من عائلة تحلّقت على طبق واحد فقط في وسط سفرة مصنوعة من خوص سعف النخيل. بالكاد يُرى لون طعام العشاء فنستحضر صورته بالتذوق. الفنر يعلو الرؤوس قليلاً والطعام يُعلي من حاسة

التذوق. ربّما لهذا حاسّة التذوق عندنا لا تخطىء. لم أرَ جدتي مريم تأكل طعام العشاء قطّ.

أختى «فاطمة» والفتيات الجديدات في الحيّ يصنعن الورد والمزهريات من أعمارهن. لم يهدِ أحدٌ لهنّ ورداً قطّ فصار الورد يخرج من بين أصابع أيديهن فيصنعن منه مزهرية.

فتيات الحيّ البارعات يصنعن من علب الخوخ والخضار مزهريات جميلات. يملأن العلب المعدنية بالرمل، يثبّتن في وساطها أسلاكاً ملفوفة بالقرطاس الأخضر هي الأغصان. ينتهي كلّ غصن بوردة من القرطاس الملون الذي يبقى طويلا ما لم يمسّه ماء. في كلّ مزهرية ثلاث وردات فقط، لكلّ وردة شكل ولون، ورائحتها رائحتهن.

يهدين جدتي مريم مزهريةً فتفرح. تشكرهن بعلبة خوخ خالية لمزهرية قادمة. ندخل في برستجها مرّات ولغياب الضوء ما كنا نرى المزهرية. نسأل جدتي عنها، وعن أيّ جهة وضعتها فتقول إنّها ترى المزهرية.

مينة

خاتم العرس واثنين من مضاعد الذهب عليهما نقش يسمى «شدّ الورد»، هذا هو كلّ الذهب الذي لدى جدتي «مريم»، وهو مجوهراتها كلّها حتى قضت، كلّما هلّ هلال شهر محرم الحرام خلعت المضعدين ولفتهما في قماش أسود حتى مطلع شهر ربيع الأوّل، لم يفارق الخاتم أصبع يديها، وتسميه «مينة»؛ لذا لم تكن في حاجة لصندوق مجوهرات. كانت «المينة» على شكل قلب، لمعانه دائم، لم تفارق أصبعها، ولم تتحدث عنها قطّ.

كلّما هزلت جدتي تحركت المينة، وفقدت ثباتَها حتى يكون القلبُ في راحة يديها. ولكثرة أعمالها اليومية تنساه. رأيتُها تعالج ذلك بلفّ خيط أخضر في باطن المينة، تملأ به المسافة، فيثبت القلب في ظاهر يديها. فعلت ذلك كثيراً. تكره أن تدور المينة، وأن لا ترى القلب. فعلت ذلك حتى امتلأ باطن يدها بالأخضر، وما عاد يظهر من المينة إلاّ القلب. أليس هذا الذي ترجوه؟ أن يثبت القلب وأن تراه؟ بعدها فقط سكنت جدتي، وسكن كلّ شيء، وما عادت المينة تدور.

غَيمة

للماء طعم ورائحة ولون.

أَوّل الصباح امرأة تحصّنت بالماء أكثر من الحياة، تخرج آمنة بنت حسن والدة جدتي مريم في الصباح الباكر تقصد البستان الصغير القريب جداً من بيوت الحيّ حافية القدمين على رأسها علبة من القصدير «بيب» ثابتة بموهبة توازن المتمكّن.

تدخل البستان، تعتمد خارطة السمع والشمّ وما تبقى من الذاكرة في العيون. تعتمد القلب. تسمع أصوات العصافير، سقوط الماء على الماء، قسيبَ الماء تحت الورق اليابس وما يسقط من الشجر، تقلّب أوراق الشجر بين الضوء والظلّ، حفيف أوراق الشجر وما تكسّر منها تحت قدميها الحافيتين. كلمّا زاد التكسّر أسفل شجرة عرفت آمنة قرب تبرعمها. رائحة البراعم تشبه رائحة طفل حديث الولادة. تشمّ رائحة شجرة الحناء، نبتة المشموم، تصطدم بأطراف أغصان الأترج المزهر فتضيع رائحة الورق والزهر. هذه علامة الطريق الصحيح إلى عين الماء. الطريق

إلى البستان سيرة الماء.

ترتاد عين الماء، ولا تحيد عن مكانها. ضيفة على أصوات الحياة في البستان. الكائنات قرب عين الماء تستعير أصوات بعضها البعض إلا الماء أصدق مرآة للأصوات. الماء غمر. تملأ «البِيب» بالماء والأصوات، تهمهم وتقول:

- سلام الله على صاحب الماء. سلام الله على قمر بني هاشم.

تغسل وجهها بالماء وتتمتم بكلمات. تضع «البيب» على رأسها، فلا يعتريه ميل أو اضطراب. كلمّا مشت تخضخض الماء وسال على ثياب سوداء يصعب تمييزه فيها. تمشي وتقرأ ما تيسّر من الدعاء على الماء.

تقصد المساجد واحداً واحداً تزود أحواضها -أواني فخارية كبيرة: جحال، مفردها جحلة- بالماء، وتزود المآتم في المناسبات ووفيات الأعلام والأئمة. فإذا انتهت حملت الماء وأخبار تفتح زهر الاترجّ إلى بيوت ثلاثة: بيتها، بيت ابنتها خديجة، وبيت ابنتها الثانية: جدتي مريم.

حدثتني أمي قالت: «غطّت جدتي آمنة بنت حسن وجهها حتى نسيناه. تمشي مبصرة في الطريق على رأسها الماء. وقد أصادفها في طريق فأعينها على الدرب لا على

حمل الماء. أصادفها في أزقّة الحيّ تمطّر، تحمل الماء. أعرفها من مشيتها وحمل الماء لا من وجهها. ألقي عليها السلام فتعرفني وتطلب مني أن أقترب. تضع يدها على رأسي وتمشي. فلا ترفعها حتى يسري ألم شديد في رأسي وعنقي لكثرة ما اتكأت عليهما. وكثيراً ما شعرت أنّي أحمل الماء.»

تعود آمنة إلى البيت وقد غمر الماء ثيابها. وما إن تدخل حتى ينقض الطفل عيسى بن مريم «جدتي» على جيبها يخرج منه ما رزقها الله في درب الماء: لوز، بِسر وكنار تخفيه في جيب صدرها. جاء عيسى من نفخة جبرائيل في جيب مريم.

نعتتها مريم بنت يوسف «عموتي» بالمرأة البصيرة «الهديّة» التي تهتدي لمرادها بقلبها لا بعينيها. قالت: «آمنة بنت حسن هديّة والبصر ليس في العيون. كان وجهها دائماً مغطى بالشيلة السوداء. رأيت أكثر من امرأة تمطّر في الحيّ ضاعت أسماء بعضهن. أذكر مريم بنت رجب تمطّر، والحاجة خاتون تمطّر أيضاً. عندما جئت حيّ النعيم زوجةً رأيت رجلاً يدعى «إبراهيم» من جنوب الحيّ يحضر الماء. يسمونه «السقّاي» وهو يحمل الماء للبيت في «الكندري» فلما انقطع تولّت مريم بنت رجب إحضار الماء. انقطعت عنّا تولّت الأمر «طيبة» وهي امرأة طيبة فعلاً. الرجل سقّاي،

والمرأة تمطّر. وكلاهما يحضران الماء في وقت عزّ فيه الماء».

وحين جاء الماء بنتْ دائرة الأشغال غرفةً من قسمين: قسم غربي للرجال والآخر شرقي للنساء، سموها «العين» ولم يكن فيها عين ماء. لكن الناس هنا لا تتصور ماءً ليس في عين تنبع. ففي تعريف الماء: هو الذي تذهب إليه. تحدثوا كثيراً عن ماء ليس له طعم ولا رائحة يتدفق من صنابير يمكن التحكّم فيها، وضعت على خطّ مستقيم تصب في مجرى من الأنابيب تحت الأرض، يصبّ في البحر. تجلس النساء أمام الصنبور وجهاً لوجه الماء، يغسلن حوائجهن. مَنْ تبكّرْ تتمكّن من الحنفية وتحصرها حتى تنتهي. قد تتنازل بعضهن للصديقات أو مَنْ يحببن لكن المرأة البكماء لا تفعل. فلا صديقات لها ولا تجرؤ واحدة على طلب الحنفية منها ولو لدقائق. وفي يوم تجمعت المياه في المجرى وما عاد يصرفها كما كان. يقولون «انسكر» المجرى. وصل مسؤول الأشغال حسن مهنا مع رجال تمكنوا من فتح مجرى صرف العين بعد لأي وتعب؛ لذا قام بتعطيل الماء عن العين من مصدره قبل أن يغادر ونسيه. ضجّ الناس: مهنا «بنّد» الماء. مرّ شهر على هذه الحال، لجأ أكثر الناس فيه لماء البساتين حتى قام عيسى بن مريم جدتي الذي كان يعمل حينها نجاراً غراً في ورشة نجار عتيد من بيت درويش بفتح الماء بمفكّ من الورشة

فتدفق الماء في الحنفيات وسرّ الناس. قال بعضهم: «انتظر عقابك يا عيسى من ولد مهنا». لكن شيئاً لم يحدث.

في الجانب الغربي من العين رجال لا يدخل الواحد منهم إلا بعلامة، تَرَدَّدُ صَوْتُهُ في جَوْفِهِ: يتَنَحنح فتسمعه النساء في الجانب الغربي فيصمتن لحين قضاء حاجته من الماء ومغادرته. كان البصير الملا سلمان يعرف الطريق إلى العين ولا يحيد عنها حتى في اللحظة الطارئة الحرجة.

تغيب الهديّة آمنة بنت حسن عن البيت كلّ صباح فإذا سألتْ امرأة عنها قالوا لها: راحت تمطّر لبيوت أهلها والمساجد. فتدعو لها بالخير والعافية بجاه قتيل الماء. وقد يقولون: آمنة تْمطّر. ولا يزيدون. لكنهم يشعرون بالحياة.

تاوة

تشعل البيتَ في الصباح الباكر برائحة الخبز. تجلس جوار النخلة الوحيدة في البيت قدامها صفيحة دائرية الشكل من الحديد الصلب يسمونها «تاوة»، منصوبة على ثلاث أثافي من الحجر، قدر به عجين أعدته وقت السحر، وما يكفي من سعف النخيل اليابس «أطْرافه» والواحد منها «طرف»، وشمعة من صنعها تظل متقدة إلى نهاية العجين. تشعل «طرفاً» وتضعه بهدوء وتأنٍ تحت التاوة من جهة اليمين. لم يحدث أن وضعته من جهة أخرى. تلحقه بطرف آخر وآخر وتدفع الطرف تحت التاوة بالطرف، وتزيح الذي صار رماداً بالمشتعل الجديد. حتى إذا ما سخنت التاوة مسحت سطحها بقماش قطني نظيف مشبّع بالزيت مرّات حتى يُرى لمعانها. لهذا ما كان الخبز يلتصق بسطح التاوة.

تجلس بمشمرها حافيةَ القدمين على قطعة خشب مستوية ترتفع عن الأرض بضعة سينتمترات يسمونها «كرسي». تحركّ وتقلّب العجين، تتأكد من تماسكه وأنّه جاهز للخبز. تأخذ ما يملأ كفّ يدها اليمنى وتضعه أعلى حافة التاوة فيثور الدخان: اششششش. تمرر العجين تستدير

به حواف التاوة حتى تنتهي فتبلل يدها في إناء ماء وتأخذ عجينة أخرى تكمل الدائره فيلتقي العجين بالعجين وهو في حموة التحوّل إلى خبز. تصنع دائرة أخرى داخل الأولى ومتصلة بها من أطرافها ثمّ أخرى حتى يغطي العجين التاوة كلّها ويصبح قرصاً.

تمدّ سكيناً غطّت مقبضها بقماش يمنع وصول الحرارة إلى يدها، تعالج القرص بتشذيبه ورفع كلّ قطعة عجين نتأت في عجلة تدوير العجين ومواضع اتصال العجين بالعجين. لا يتمكّن الاتصال إلا بتشذيب مواضع الاتصال. وما علق من عجين في السكين ترفعه بيدها اليسرى وتجمعه في إناء آخر.

علامات نضج الخبز واستوائه اللون والرائحة. يصبح لونه بنياً مذهباً في وسطه يتخفف في أطراف الخبز. يتأكد الذهبي عند اقتراب الشمس من التاوة. أمّا الرائحة فتسبق اللون إلى أبعد شخص عن التاوة في البيت. هي رائحة الحياة في الصباح. قد تنتظر قليلاً إذا لزم الأمر. وقد تدسّ طرفاً صغيراً إذا احتاجت لذلك.

فاذا استوى رفعت أطرافه بالسكين فتتكسر وتتطاير نتفٌ صغيرة لحظة مرور السكين بين قرص الخبر والتاوة. هذه الكسرات نصيب العصافير بشرط أن لا تراها جدتي

مريم فإذا رأتها رفعتها عن الأرض بيدها قطعةً قطعة فهذا خبز مقدّس في شهر مبارك، شهر رمضان ولا يصحّ أن يكون منه شيء على الأرض وما فسد منه وما أزيل من عجينة بالسكين تأمر الأطفال أن يأخذونه إلى البحر القريب جداً من بيتنا.

الطفل الذي يأكل الخبز واقفاً تأمره بالجلوس وأن يضع الخبز في صينية معدنية تمنع سقوط ما تكسر منه.

تمسك طرف الخبز الرقيق جداً «خبز رقاق» باليد اليسرى بينما تعمل السكين في تسريع فصله عن التاوة. فإذا انفصل طوته من منتصفه فيصبح نصف دائرة ثمّ طوية أخرى فيصبح مخروطياً، تجمعه في زبيل مصنوع من خوص سعف النخيل لا يحبس الحرارة.

وقد يكون الخبز بالبيض والهيل والسكر والزعفران. رائحته تحرض الصائم على الإفطار في الصباح. تطويه بطريقة تميّزه عن الخبز العادي فيصبح شكله مربعاً.

ولا تخلو ساعة الخبز من طفل من أحفادها نهض من فراشه للتو، ينظر إليها في صمت ينتظر نصيبه: ما بقي من العجين تصنع منه خبزاً صغيراً في وسط التاوة «حنّاوة».

- يالله.

هكذا تشير إليه جدتي فيأخذ «الحناوة» ويغادر المكان بغنيمته جزاء صبره اللذيذ، مثل رزق عصفور صغير في غياب كبار العصافير.

لا تتكلم جدتي مريم وهي تخبز، لا تقول شيئاً بالمرّة. الكلام للنار الهادئة جداً وللتاوة والصمت من خبز رقيق لذيذ.

حدثتني مريم بت يوسف «عموتي» قالت: علمتني أم عيسى كيف أخبز، وكيف أنصت.

وجه الوردة

الوجه استراحة الوردة.

على قطعة من القماش الأبيض الناصع التي تمّ قطعها بعناية تطرز جدتي مريم مزهريةً فيها وردات ملونات في وسط القماش، تحدد الوردات أولاً بخيوط «السيجة» الملوّنة، وهي خيوط قطنية ملفوفة طولية مثبتة بقرطاس ملفوف في وسطها مثل سرج. تسميها النساء «سِيجة» وجمعها «سْيج»، وهذا اسمها في السوق أيضاً. لا يستطيع فلّ خيوطها إلا متدرّب متمكّن حتى ضرب بها المثل فيقال لَمن فقد السيطرة على إدارة أمر ما وخرج عن يده «عفّس السيجة»، أي أدخل خيوطها في بعضها البعض وما عادت صالحة للاستخدام.

لا تستخدم «السيجة» إلاّ في التطريز؛ لسمك خيطها وضعفه ونصاعة ألوانه وتعددها، فإذا انتهت جدتي مريم من التحديد ملأت بطن الوردات بألوان السيجة ذاتها وبالرحيق، بعدها ترسم بخيوط السيجة ببغاوتين خضراوتين متقابلتين في وسطها المزهرية، تنتهي من

تحديد الببغاوتين فتملؤهما باللون الأخضر. كلما تعبت جدتي أدخلت الإبرة في ثقب في أنفها فلا أحوّل وجهي عن وجهها. أندهش ولا أسألها: كيف تستريح الوردة في الوجه؟

كنا نظنّ لفرط جمال المزهرية والببغاوتين أنّها بستان حقيقي فنمسك يد بعضنا البعض ندنيها من فم الببغاء لتعضها. نقاوم، نصرخ، نسحب يدنا الصغيرة خشية منقار الببغاء، نخاف أن تعضنا. وقد نشتهي الورد فنضع فمنا على المزهرية.

يسمون الواحد منها وجه المسند، وعلامته المزهرية والببغاوتين. أثاث مريح يوضع حول مجالس البيوت وفي المآتم. وقد لا يوضع إلاّ لضيف، يسند ظهره على المزهرية ويستريح.

تتشابه وجوه المساند القطنية في البيوت مثل الحياة حتى لو أنّ امرأة استعارت حياة أخرى ما زادت عليها شيء. اليوميات، الأثاث، الكلام، الأزياء، الطعام، طرق الطبخ، اتصال الرجال بالنساء، رائحة النساء، البيوت من الداخل كلّها تتشابه.

تنتهي جدّتي مريم من أعمال البيت وأعمالها، وما بقي

من الوقت تقضيه جوار قفّة فيها أدوات الخياطة: مقصّ، إبرة، بكرات خيوط أكثرها سوداء، أقمشة قيد الخياطة، وربما قماش في كيس لم يمس بعد لامرأة ليست في عجل. ستكون الإبرة في آخر موضع وصلت إليه في خياطة لباس ما. الإبرة علامة «نيشان»[1]. وكثيراً ما فتشنا عنها في عجل فلا نراها إلا بعد وخزة تتبعها صرخة بعدها نكون حذرين في البحث عنها. علامة الإبرة خيط مدلى فيها أو لمعان في قماش. لانحذر إلا بعد وخز مؤلم.

تدخل امرأة البيت على غير ميعاد بالكاد نرى شيئاً من وجهها، تنادي جدتي فإذا خرجت لها حيّتها بالسؤال عن الأحوال. النساءُ هنا لا يبدأن اللقاء بالسلام لكن بالسؤال عن الأحوال والأولاد «ويش الأحوال؟» ولا يكون الرد بغير «بخير والحمد الله. ». سوف تتعلل المرأة برغبتها في الانصراف بطعام الغداء الذي تركته «مرّكب» على النار. كان يمكن للمرأة أن تقضي مشواراً سريعاً خارج البيت بينما النار تشتعل تحت القدر. تركت المرأة كيساً وغادرت. قالت «الله وياكم» فيأتيها الردّ «الله يسلمك من الشرّ والضرّ» ووصيّة بإيصال سلامها إلى امرأة أخرى.

1- نيشان: اسم علم مذكر كردي، معناه: الإشارة. وله المعنى نفسه في اللهجة الدارجة، ويعني أيضا رسم الأشكال في الخياطة والنجارة ومقاساتها.

تعرف جدتي المطلوب من محتويات الكيس. تعرف إن كان المطلوب خياطة ثوب أو أيّ نوع من السراويل. وتعرف أيضاً مقاسات المرأة من غير قياس. ووقت استلامه جاهزاً تحدده جدتي التى لا تترك الكيس في قفّة الخياطة حتى تنظر ما فيه وتحدث نفسها بصوت: «سروال قيطان».

العمل الوحيد الذي تنجزه جالسةً مستريحة، تمدّ رجليها واضعةً إحداهما على الأخرى هو الخياطة. هذه الجلسة تسمح بنشر القماش فوق رجليها والتصرف فيه. وغالباً ما تكون قفّة الخياطة إلى يمينها. تخيط الفستان، الثوب الرقيق الشفاف الذي يلبس على الفستان فيشفّ عنه، ثياب الحج «الإحرام»، المشمر، سروال محجّل، وأخيراً سروال القيطان. وأكثرها طلباً الأخير الذي يتكون من ثلاث قطع من القماش: «الوجه» وهو القطعة الأساسية من السروال وتبدأ من الركبة إلى أسفل الجوزة، «الحدرة» وتبدأ من الركبة إلى السرّة، و«البطانة» مثبتة داخل السروال من فوق الركبة إلى القدم. ينتهي بحزمة من خيوط الحرير القصيرة المصبوغة بالأسود، مجتمعةً مع بعضها البعض تُثبّت في ذيلي السروال بما يشبه «الكركوشة»، قيطان عند كلّ قدم. ينتهي السروال عند الخاصرة بخيط «الدجّة» الذي له وظيفة الحزام في ثبات السروال أو حلّه.

في «الوجه» عمل آخر، تطريز دوائر تبدأ نواتها باللون الأحمر القاني، يليله الأبيض وينتهي بالوردي الفاتح. يسمونه «مدقق»، توزع دوائره على «الوجه». وأكثر ما تخيطه جدتي مريم هذا السروال. فهو الزيّ الشعبي المعتمد للنساء. وقيل إنّ احتكاك خيوط القيطان بالأرض عيب، وارتفاعه كثيراً بما يكشف عن بداية الساق عيب أكبر. المرأة بقيطانها.

حدثتني أمّي قالت «تعلمتُ من جدتك «خالتي» الخياطة بالنظر إليها ومشاهدتها ساعة تخيط. وكانت فاطمة المشهورة في الحيّ بأم عبود بارعة في الطبخ والخياطة، وجارتنا مريم بنت أحمد بن عيسى «أم علي» خياطة ماهرة».

الخياطة الطويلة مثل خياطة ذيل وأطراف الثوب والمشامر «الخبان» لمنع تمزقها أو تهتّك خيوطها تنجزها جدتي بماكينة خياطة من نوع «سنجر» العظيمة. تدير عجلة ذراعها بيدها اليمنى، بينما تمسك طرف الثوب وتسوّيه وتخضعه تحت الإبرة بيدها اليسرى. كلّما أنجزت مسافة منها مالت بجسدها على رأس الماكينة، تسوّي مسافة جديدة من قماش الثوب، فلا ترفع رأسها وترجع إلى الوراء حتى يكون طرف الثوب جاهزاً لينساب تحت قسوة الأبرة ولمعانها. هكذا الخياطة بالماكينة: ميل ونفور. ولكثرة ما استخدمت

هذه الماكينة فقدت بعض علاماتها وأصباغها الذهبية وصارت سوداء. وفي يوم اقترح عليها أخي «هاني» تحويل هذه الماكينة العتيقة السوداء إلى كهربائية ضحكت وظنّت أنّ هذا لا يكون؛ فليس أفضل من عجلة اليد في التمكّن والإنجاز البطيئ المحكم. العجلة من الشيطان. أعاد عليها الاقتراح مرّات ثمّ شرع في تركيب محرك كهربائي صغير. فلمّا دار المحرّك ورأت عجلة الماكينة تدور لوحدها فرحت وقالت لهاني « إنت ساحر». ومنذ ذلك اليوم صارت تعتني بالحالة الجديدة للماكينة، وألبست دواسة التشغيل كيساً قماشيا للمحافظة عليه. كانت تدوس عليه بيدها وهي جالسة لا برجلها. لكن عادة قطع الخيط لم تتغير: بالأسنان لا المقصّ. وكثيراً ما عَلَقت قطعةٌ صغيرة من خيط أسود في شفتها السفلى علامة للقادمين أنّها كان تخيط.

أكثر ما خاطت جدتي اللون الأسود. غير الأسود نادر جداً. فالنساء في حيّنا مردافات للسواد.

تلبس جدتي مريم ما تخيطه يداها. تلبس ما تصنع ولا تنتظر أحداً. تلبس الفستان «مقصّر» بكمين قصيرين عليه ثوب أسود خفيف جداً مصنوع من الململ المناسب للصيف الطويل وعباءتها الحرير السوداء ونعلها المتواضع. وربّما

رفعت الثوب تغطي بها رأسها فيأخذ شكلاً جمالياً آخر. هذا لباسها في الحيّ. وعندما تغادر لعرس أو غرض آخر يتغيّر شكل ولون الفستان والثوب عليه والغشوة وتتغير عباءتها السوداء إلى«الردا» وهي عباءة مذيلة بنسيج أحمر عريض يقطعها عرضا. تضع وسط حافتها على رأسها حتى أعلى الحاجبين، ترفع طرفها الأيمن، تضعه تحت ذراعها الأيسر وتنزل عليها شيئا من طرفها الأيسر. في هذا الوضع تتفرغ اليد اليمنى لضبط «الردا» على الرأس كلما انزاحت للخلف. لكن لا أحد يرى شيئاً من اليدين، بينما يتجمع النسيج الأحمر أسفل الصدر إلى القدمين ولا يُرى منه شيئاً في الخلف. تتغشى، تغطي وجهها بغشوة «بوشية» من قماش أسود شفّاف لا يعيق الرؤية مطرّز الحواف بنقش من خيوط الزري الذهبية، تنسدل على الوجه وتنتهي بقطعة قماش أحمر مذهبة بالزري المتقاطع الخطوط. تتدلى من الغشوة مجموعة خيوط زرقاء مصفوفة بعرضها. ولمّا تقدّم بها العمر استبدلت العباءة السوداء بـ«الردا» لثقله وما عادت تلبس الغشوة.

تنتعل «مداساً» أسود، خشناً، لامعاً تُحضره النساء من العراق، مفتوح المقدمّة، وآخر مغلق.

خاطت جدتي مريم حتى تعبت الإبرة في وجهها، كانت تقول «الخياطة غير عيون»، وبغيرها صارت تنادي أقرب طفل من أحفادها يمرّ جوارها، تطلب منه أن يدخل الخيط في ثقب الإبرة. يفعل ذلك ببراعة المستعجل ولا ينتظر، يقفز بعيداً مثل عصفور في أوّل الصباح، تضحك.

الغريب

هذا الغريب لا يلتفت.

يأتي من الشرق، من سوق المنامة ساعة الغروب على دراجة هوائية بيده عصاة طويلة يشعل بها مصابيح شوارع وأزقة الحيّ. يعرف موقع المصابيح المتباعدة في الحيّ، سوف يعود في الصباح الباكر ليطفئها واحداً واحداً، يفعل ذلك كلّ يوم كساحر في عجلته عجلة تعاقب الليل والنهار، يسمونه: أبوالليتات، أي «المصابيح».

ولقلّة عدد المصابيح وتباعدها يبقى الحيّ شبه مظلم. كلّما اشتدّ الظلام قلّ المارة. العائدون من السينما والمقاهي الشعبية الساهرة في جنوب الحيّ وأصوات بعض الحشرات. الكلاب تمرّ بالحيّ على عجل ونسمع نباحها من بعيد. نسمعها في الشتاء أوضح منها في الصيف. ليل الشتاء في حينا يفضح الأسرار وهمس الأزواج، واتفاقات تعقد بثقل وتنتهي بتأفف وشتائم.

الكلاب التي تمرّ على عجل في الحيّ استقرت –تلك الليلة– في وسطه، جوار بيتنا حتى ساعات الصباح الأولى، لم تتوقف عن النباح المخيف، لم يخرج إليها أحد ينهرها. لم

ينم أحد أيضاً. ولم يحدث ذلك من قبل في تاريخ الحيّ. ليلة طويلة، ليلة الكلاب. وفي الصباح صرخت جدتي مريم أنّ الأمر مدبر ومقصود وأنّ هذه الكلاب تشبه الذين أرسلوها. لم يقل أحد من رجال الحيّ ذلك. جدتي قالت وبدأت قصة جديدة أكثرها ظلاماً. تحدث الناس عن غضب جدتي لا عن ليلة الكلاب وتمنى بعضهم لو ترجع أيام حراسة الحيّ عندما كان نظام «النطارة» فعالاً برجال يسهرون يحمون الحيّ ليلاً من اللصوص والغرباء والذين يضرمون النار في عشيش الفقراء وبيوتهم المصنوعة من سعف النخيل ثمّ يلوذون بالفرار. توقفت «النطارة» عندما رأى البعض أن اللصوص قلّوا والبيوت صارت أكثرها من الحجارة البحرية «فروش» والطين ووضع مصابيح في شوارع الحيّ الرئيسة.

ها هو يذرع الحيّ بدراجته وعصاة الكهرباء، يطفئ المصابيح واحداً واحداً، قادماً من الغرب باتجاه سوق المنامة شرقاً. وبين الحركتين والجهتين: المساء والصباح، الشرق والغرب يمتلئ الحيّ بقصص الناس فيه وبأحلام صغيرة جداً ويهدأ السواد أسفل عيون النساء المتعبات. لا يعرف أبو المصابيح ذلك ولا يلتفت الناس لعجلته. غريب يشعل الحيّ بالكهرباء ويغادر.

ملائكة الأسماء

لا أحدَ من أهل الحيّ يعرفُ لِمَ أُطلق اسم «الملائِكة» على رجلين فيه، لكن الجميع يعرفُ جيداً أنهما لا يُرَسلان إلا برسالات البَهجة والفرح إلى أهل الحيّ كله، لا ينافسهما أحدٌ في خفّة الحركة والجِدّ، ولا في معرفة أسماء رجال الحيّ، تُعرض الأسماء عليهما فيعرفانها، ولا يُخطئان في واحد منها، ولا في موقع بيته، ولا حياته من مماته، ولا سفره من بقائه، هما ذاكرة أسماء رجال الحيّ، هما المَلكان: علي وحميد.

يقتربُ حميد المَلَك من باب البيت بعصا غليظة، وقبل أن يقرع الباب، يلتفتُ إلى علي المَلَك البصير يخبره باسم صاحب البيت. يقرع الباب فإذا سمعا صوت استجابة أهل ذلك البيت، يتجاوز علي برأسه باب البيت ويبدأ بتبليغ الدعوة رافعاً صوته وفي نفس واحد بدعوة تحمل تميّزه وسيرته وسرعته معا. يهتمّ بها وكأنّه يتلوها لأوّل مرّة في كلّ مرّة:

- «الحاج علي وعياله «أولاده» معزومين «مدعوون» الليلة على العشا «طعام العشاء» في بيت الحاج محمد علي بن

رضي عرس ولده حسن والصباح الريوق «الإفطار».

فيأتيه صوت النساء مباركاً: الله يطرح البركة.

وربّما انشغل أهل البيت فلا يصغون جيداً لدعوته، عندها يرجونه أن يعيد تلاوتها فلا يتبرم. ما كانت جدتي مريم تفعل ذلك فهي تعرف نوايا الخطوبة والزواج في الحيّ وما بعده قبل ملائكة الأسماء والناس أجمعين. أليست هي الخاضبة الأساسية التي لا غنى لأيّ عرس عنها؟ لا خاضبة غيرها في الحيّ.

وقد يهبط الملكان مرتين في اليوم الواحد بدعوتين مختلفتين، كلاهما في فرح. يذرعان الحيّ ولا يتعبان ولا يملاّن، جديران بتبليغ الدعوة، وإيصال الرسالة، يشغلان الحيّ كلّه: شرقه وغربه ووسطه وجنوبه.

يأويان إلى مسكنهما ضحىً، ينالان قسطا من الراحة ويأكلان. غرفة صغيرة جداً أسفل سلّم عمارة. لم تكن غرفة تماماً. يسمونها غرفة.

توفي حميد المَلَك فجأة. لم يفكّر أحدهما في رحيل الآخر. رحل فرحلت معه الأسماء كلّها، وخارطة الحيّ. كان لعلي الملك عينه، وكتاب أسماء الحيّ. رحل الكتابُ ورحلت العين.

حزن على صديقه كثيراً واتخذ شخصاً آخر، لم يستطع منافسة ومجاراة المَلك الراحل في مواهبه، لم يكن يعرف من أسماء رجال الحيّ إلا قليلا. تُعرض الأبواب عليه فلا يعرف أسماءها. مَنْ يقوى على منافسة مَلَك؟

أوجد علي المَلَك صيغة جديدة للتحايل على محنة غياب الأسماء. فكلّ رجل في الحيّ يمكن أن تسميه (الحاج) إذا لم تكن تعرف اسمه. انتبه رجال إلى غياب الأسماء من الدعوات. صار غياب حميد المَلَك واضحا جداً. غيابه غياب الأسماء.

وزادت محنة الدعوة بعد فقدان الأسماء غربة الحيّ الجديدة وسكن العمال الآسيويين في بيوت عوائل غادرت الحيّ.

صار نادراً أن ترى «علي المَلَك» يمرّ على بيوت الحيّ. تخفّف الحيّ من تكليفه بإيصال الدعوات بعد أن صارت دعوات العرس والأفراح في بطاقات صغيرة مكتوبة باللون الذهبي فيها اسم العروسين. ما كان اسم العروس يذكر قبل ذلك.

صار المَلَك الوحيد في الحيّ يجالس أصحاب الدكاكين يقطع وقته بحكايات الأسماء وصديقه الراحل. بعدها

اختفى طويلاً، ولم يعد أحد يراه. توفي وحيداً بعد تراجع صحته، وتعاظم وحدته، وغربة صوته.

رحلت الملائكة فضاعت الأسماء.

فَرْشَة

الفَرْشة أوّل العرس، أوّل اللمس في حياة يندر فيها أن يلمس الرجل امرأةً في غير عرس، كلّ شيء فيها يحدث لأوّل مرّة حتى الكلام، لا تهيئة للعروسين قبل دخول الفرشة إلا من كلام، الحياة الجديدة تأتي فجأة وخطفة في هذا المكان، الرجال الذين دخلوا الفرشة يختصرونها في أوّل اللمس ويتفاخرون، النساء اللواتي أدخلن فيها، لهن ذاكرة سريعة الاستحضار بطيئة جداً في السرد. الفرشة مركز البيت. الفرشة جنّة العروس.

تهيئ جدتي مريم وشريكتها «خوّار» غرفة لأيام العرس الأولى يسمونها: الفرشة. قد يعينهما في ذلك الطويلات الخفيفات النشيطات من صديقات العروس وجيرانها.

تملك جدّتي من الأقمشة والمرايا وكلّ ما يجعل من غرفة كئيبة فرشةً تضجّ بأوّل الحياة. فلما احتاجت للتطوير واستبدال الأقمشة والأسقف التي بهتت نضارتها أشركت المعلّمة «خوّار بنت الحاج رضي» معها. وهي ملاية ومعلمة قرآن. بيتها يضجّ بأصوات الصبية والفتيات يرتلون القرآن.

صاحبة رأي وقلب طيب. لها الأمر كلّه في البيت. ليس لها أولاد وزوجها قلاف ظريف. هذا لا يحدث فالقلافة كدح وجدّ.

فلما اتفقتا صارت فرشة العرس باسمهما: أقمشة موشاة بخيوط الزري الذهبي «سناحات» يتمّ تثبيتها على الجدران بدءاً من اليمين مصحوبةً بالصلوات على النبي محمد وأهل بيته ودعوات بالسعادة في الحياة، وما تسنّح من بركة في هذه السنحات، وأقمشة حمراء اللون «بنديرة» تغطى بها سقف الفرشة يثبت في وسطها طبق في وسطه رمانة. ومرايا مستطيلة تزينها طواويس ساحرة تعلق فوق السنحات حول الفرشة، ورمانة من زجاج لامع تُعلق واحدة منها في أعلى وسط كلّ مرآة فتنعكس رمانتين متلاصقتين شهيتين. كلّما دخل العروسان انعكست صورتهما وصارتا تملآن الفرشة كلّها.

صار في أقمشة الفرشة سيرة أزواج كثيرين، رائحتهم، رائحة بخور العود والمشموم، وفي المرايا قصص اللمس الأولى، وحكايات الخوف من غريب صار فجأةً زوجاً.

وفي يوم وبينما كانت جدتي مريم تستعين بسلم لتركيب الأقمشة سقطت أرضاً وأصيب الإصبع الثاني في قدمها

الأيمن فظلّ معوجاً يذكرها بالفرشة طيلة حياتها.

فلما بلغت الشريكتان من العمر ما يصعب معه الاستمرار في إعداد الفرشات اتفقتا مرّة أخرى لكن على بيعها وتقاسم المبلغ. استثنت جدتي المرايا من البيع واحتفظت بها لنفسها. مرايا تفيض فضتها بصور العرس الأولى، وبأوّل الحياة وبفرشات حظ النساء في الرجال.

نيشان

تمشي جدتي مريم إلى بيت العروس بمخضبتها وإبرة و«نيشان» لا يتغيّر. لا يسقط من الخضاب خطّ واحد أو نقطة. النيشان: أن لا تتجاوز الرسم. وعندما تقترب من باب بيت العروس توقف الفتيات الصغيرات الغناء بينما تقفز واحدة بخفة العصافير إلى داخل البيت تصيح فيهن:

- وصلت أم عيسى.

فتتغيّر الحركة في البيت كلّه ويزيد التصاق الصديقات بصديقتهن العروس وهي في بهجة وأقمشة العرس الخضراء المذهبة تسمع ولا ترى. تعبت من الجلسة لكنّها لا تقول. لم يحدث أن أفصحت عروسٌ عن تعبها.

العيون على الباب إلا العروس فهي ترى ببهجة صديقاتها. تعلو الصلوات وتنخفض عند النساء في غير نظام. أم العروس تنتظر أيضاً وتستعجل، تنفي وتثبت مجيء جدتي مريم. تسميها النساء «أم عيسى» نسبة لولدها البكر والوحيد. فلما صارت جوار الباب عادت الفتيات لقرع الطبول والضرب على علب معدنية كبيرة بشكل صاخب

متواصل فقالت النساء: هي عند الباب.

دخلت جدتي مريم بعباءتها وقد تلفّعت بالسواد، لابسة ثوبها الأسود. مدّت يدها على إطار الباب المفتوح تستعين به على تخطّي عتبة الباب. ألقت التحية وهي تتخطّى النسوة الجالسات نحو أم العروس أولاً تجدد مباركتها ثمّ توجهت نحو العروس. ألقت عليها التحية فلم يسمع أحد ردها. جلست قدامها بينما أعادت أخوات العروس والصديقات ترتيب جلستهن، اقتربن أكثر من جدتي وهي تلملم عباءتها وتسوي جلستها التي ستستمر حتى نهاية خضاب العروس.

أخذت رجلها إلى بطنها فاستوت ركبتها قائمة منخفضة قليلا عن وجهها. صارت ركبتها بينها وبين العروس. فلمّا استقرّت وهدأت الفتيات حولها، وتأكدت أن لا واحدة تلتصق بها سمّت بالرحمن قالت تخاطب العروس:

- يالله. حطّي ايدك على ركبتي.

فتخرج العروس يدها في هدوء بالغ من تحت أغطية العرس بينما تساعدها صديقة في وضع باطن يدها على ركبة جدتي فتعلو الصلوات من أم العروس بينما يضجّ باب البيت بالغناء. صارت ركبة جدتي منضدة الخضاب.

تخرج جدتي مخضبتها فتصبح مركز العرس كلّه. عيون

أخوات وصديقات العروس على ما فيها. تتأكد جدتي من تماسك الخضاب بتحريكه بإبرة رشيقة فقدت لمعانها ولولا سواد الخضاب ما لاحظ أحد حركتها. وقبل بدء التخضيب تتأكد جدتي من أن يد العروس في مكانها، تطلب منها الثبات ومن اللواتي حولها ترك مسافة تمنع الاصطدام بالعروس أو بها. لكن ذلك غير مضمون كثيراً لذا تؤكد ذلك بنظرة جادة جداً لا تهاون فيها. ليس في العرس مسافات.

تعيد خلط الخضاب، تخرج الإبرة وقد علق في رأسها ما يحتمله من الخضاب. تسمي بالرحمن فترتفع الصلوات ويضجّ باب البيت بالغناء. ترسم بالإبرة خطّين متوازيين عند نهاية أصول أصابع ظهر اليد يعبران الكف عرضاً. وفي وسطه تماماً ترسم مثلثاً قاعدته خطّ الأصابع، فيه ترسم مثلثاً أصغر منه بقليل في وسطه تضع نقطتين متعامدتين تجعلان فراغ المثلث واضحاً. وفوق قمته تماماً ترسم خطين قصيرين متقاطعين متساويين تترك نقطة عند كلّ زاوية فيه. تعود وترسم مثلثين متداخلين آخرين قريبين من الإبهام في وسطه نقطتان متعامدتان. وبين الرسمين قريباً من مثلثي الإبهام ترسم خطين قصيرين متقاطعين تترك نقطة عند كلّ زاوية فيه. أما نهاية أصل الخنصر فترسم فوقه مثلثين صغيرين متداخلين تضع

فوقهما خطين قصيرين متقاطعين تترك نقطة عند كلّ زاوية فيه وكذا آخر عند زاوية المثلث جهة الوسط. فإذا انتهت من ذلك تضغط على سبابة يد العروس فتلتصق أكثر بركبتها. عندها ترسم مربعات متلاصقة من أصل الأصبع حتى أظفرها، تضع في كل مربع نقطة واحدة فقط. فإذا انتهت من ذلك نظرت لليد نظرة فاحصة شبه دائرية وطلبت من العروس وضع يدها الثانية فتهبّ الصديقات لمساعدتها بينما تضع اليد المخضبة خارج أغطيتها.

كلمّا شارفت جدتي مريم على الانتهاء اقتربت الصديقات منها أكثر في حركة لا يلمحها أحد. وهن يفعلن ذلك لا تخبر إحداهن الأخرى حتى لو كانت أقرب الصديقات لكنّهن لا يلتصقن بجدتي وإن شعرت بذلك تكفي نظرة منها يتراجعن بها للوراء بما يلغي الالتصاق فقط.

تنتهي من خضاب اليد الثانية فترفع جدتي رأسها وتلمح القريبات بابتسامة سريعة جداً يعرفن منها أن لا اتفاق على خضاب القدمين وأنّه حان دوركن فتحدث حركة وكلام كثير فتعرف النسوة أن العروس صارت مخضبة فتعلو الصلوات وتسنح الفرصة للاقتراب أكثر من جدتي. وعلى غير نظام تمتد الأيدي الصغيرة للخضاب وتتصادم على ركبة جدتي مثل طيور النورس على طعم بحري لذيذ. تبقى جدتي تخضب الأيدي بنقش مختلف عن

العروس حتى ينتهي الخضاب. وقد ينهي أذان الظهر كلّ ذلك حتى لو لم ينته الخضاب. وهو غالبا ما يسبق الأذان بقليل.

تنهض جدتي وعيون النسوة والصديقات على العروس وحدها. تغادر بيت العروس بلا ضجّة ولا عيون. الحركة كلّها جهة العروس يطلن النظر لخضابها، لليدين خارج الأغطية.

تسند جدتي يدها على إطار الباب، تتخطّى العتبة وحدها بهدوء الضوء وخفّة النيشان.

خاتون

وضعوني في العرس فكبرتُ.

غطّوني بمشمر أخضر تزينه خيوط الزري الذهبية وأسدلوا بقماش أبيض شفاف على وجهي، يحركه نفسي. أصغي للقريبات منّي وأعرفهن من أصواتهن وأرى بما رأيته من قبلُ ومن بعدُ في سيرة عرس الصديقات والجارات. أرى بما أسمعه. هذه أصوات وضحكات صديقاتي: فاطمة ونعّوم وبدّور وأمّون وغالية وتعّوب وهذه جارتنا خدّوج تنادي الخاضبة مريم بتودد:

– أم عيسى ضعي «نونو» لابنتي كي لا تتبعها ريحة من العروس.

فتقطع أم عيسى خضابي وتضع نونواً سَاحراً على ظهر كفّ طفلتها فتشكرها وتدعو لها. أمّا الطفلة فلا تحوّل عيونَها عن رسم النونو. وكانت النساء لا يخرجن حتى تضعَ الخاضبة مريم نونواً على أيدي أطفالهن إناثاً أو ذكوراً كي لا تتبعهن أوتتبعهم رائحةُ العروس فيدخلهم مرض أو علّة.

هذا اليوم الثاني وفيه تفحص الخاضبة مريم حناء الليلة الماضية وتتأكد من درجة لونه وثباته. تضع الحناء على الحناء، الطبقة على الطبقة ليتأكد لونه ويثبت. يسمونه «الطرق» الثاني. فإنْ صار لونه باهتاً «كاشفاً» قالت أم عيسى:

- «العروس ما فيها دم. الحناء ما يحبها لكن زوجها سوف يحبها كثيراً».

كان «حناء العجين» في كفّي وقدميّ باهتاً جداً حتى قالت النساء «طرقين حنوها ولا صَبغ». سوف تأتي أم عيسى وقت الضحى من اليوم الثالث للخضاب وهو طقس الحناء الأخير.

الفرشةُ أوّل العرس. لا تبدو علامات العرس في بيت حتى تشيّد النساء الحجرة التي سوف يلتقي فيها الزوجان أوّل سبعة أيام لهما في حياتهما ويسمونها «الفرشة». دخلت امرأتان بيتنا في الصباح الباكر قبل أيام من العرس: الأولى الخاضبة أم عيسى «مريم» والثانية «بت كاظم» ويدعونها «أم سعيد» أيضاً لكنّي لا أعرف اسمها. أكثر النساء لا نعرف أسماءهن. هنا أسماء النساء تضيع. دخلتا تحملان من المواد والأغراض ما يجعل الغرفة المخصصة للعرس «فرشةً»: قماش «سناحات»، وقماش «بنديرة» ومرايا كثيرة

مختلفة الأحجام يسمونها «مناظر» والواحدة «منظرة». فلما انتهتا من نقل مستلزمات الفرشة وقفتا تتحدثان عن المكان. من أين تبدآن؟ سوف تحتاجان ثلاثة أيام للانتهاء من الفرشة والكلام ساعة العمل قليل.

بدأتا من اليمين في تثبيت «السناحات» حتى لم يبق من جدار الحجرة لونٌ إلا تغطّى به وصار المكان يزهو بلون «السناحات». فلما انتهتا عمدت أم عيسى تثبّت قماش «البنديرة» الأحمر في السقف الذي يثبّت في وسطه صحن من «الكرتون» مغلف بأقمشة ملوّنة، تُثبت في وسطه رمانة زجاجية. ثُبتت المرايا «المناظر» على السناحات ثلاث صفّات، وتدلّت الكرات الزاهية «الرمانات» في وسط المرايا وانعكست صورتها وصارت الرمانة رمانتين. وكانت النسوة يغنين على ذلك:

طلْ وشوفْ يالمعرس بكل منظرة رمانـة
أم العروس مغنضرة وأم المعرس فرحانة.[1]

تُزين «الكِلّة» وهي عرش السرير بقماش أحمر شبه شفاف يتدلى إلى أسفل مرتبة السرير قليلاً، تحيطه مرايا «مناظر» بحجم الكفّ. فلما جهزت الفرشة عطّروها

1-منظرة: مرآة. مغنضرة: غاضبة لرحيل ابنتها عنها.

وبخّروها فأصبحت بقعةً من الجنّة.

با الهيل بالهيل على من يقرض الهيله
بتنا صغيره ولا تقدر على العيله.[1]

فلمّا قرب العرس ولم يبقَ غير ثلاثة أيام لأغادر طفولتي مبكراً وأصبح الطفلة الزوجة، المرأة الصغيرة «الهيلة» في فم رجلي. أخذوني وثلّة من الأقارب والصديقات في سيارات إلى غرفة يمرّ فيها ساب من سيبان عين عذراي في قرية أبو ابهام، بابها مفتوح على البساتين لا على الشارع وفي داخلها ضفتان يمرّ ماء ساب عين عذاري أسفلهما. هذه الغرف المائية للنساء فقط. هناك اغتسلت وأزلن عن جسدي كلّ شعرة فيه، ولكثرة المبالغة في إزالة الشعر والزغب صار جسدي كتلة من الدم. صار جسدي ناعماً مصقولاً أملساً لا تقف عليه قطرة الماء. انتهين من غسل شعري وتجفيفه بفوط جديدة. فلمّا خرجتُ من الماء وألبستني إحداهن حجولاً من الذهب في الرجلين:

طلعتْ من الحمـام رنّت حجلها
من بين لصبيان جاسم رجلها

وضعت الخاضبة أم عيسى بيضةً تحت قدمي اليسرى

1- العيلة: العائلة.

وطلبت مني كسرها ففعلت، سبقت ذلك ببسم الله الرحمن الرحيم وأعقبته بالصلاة على محمد وآل محمد. عروس فاتنة في لحظات يتخطفها الجنّ والإنس لذا كسرت البيضة، ولأنّ حياة كلّ شيء تبدأ ببيضة. يسمون هذا اليوم «نسال العروس».

ألبستني المشمر الجديد وغطّت وجهي بقماش أبيض شبه شفاف«غشوة» بالكاد أرى منه. لن يرى أحدٌ وجهي بعد ذلك إلا خلسةً ولن يرفع الغشوة عنه إلا زوجي بعد ثلاثة أيام. برزخ بين حياتين: الطفلة والزوجة. الناظر رجل والفاتح رجل. رجلي أنا. منذ هذه الغشوة أنا أسمع فقط. حدث كلّ ذلك في العصر، وصديقاتي يغنين:

واتسبّحت من عصر ورمـــت روحهـا عليـــه

واتعجّفت من عصـر ورمـــت روحهـا عليـــه

واتـلبّست مـن عصـر ورمـــت روحهـا عليـــه

وادير مـت مـن عصـر ورمـــت روحهـا عليـــه(1)

تحرّكت السيارات بنا وسرعان ما توقفت. أنزلوني وليست المشية كالمشية. قادوني ويدي الخاضبة مريم تحيطني من كتفي الصغيرين. تكفي يد واحدة لتحيط كتفيّ. قالت

1- اتعجفت: جدلت شعرها. اديرمت: صبغت شفتيها بالديرم.

إحداهن:

- هذا مسجد قرية أبو بهام فلا تنسون نذر أمها.

أمّي لا تخبرنا بنذورها. هي تنذر ونحن ننفذ نذرها فتفرح. ويا ويلنا لو سَخَر أحدنا من نذورها عندها يدخلها غمّ وهمّ كبير. أجلسوني بينما قامت الخاضبة مريم بوضع الحناء في أطراف أصابعي فقط «قمّعتني». فلمّا أنتهت من «تقميع» أصابع يديي ورجلي سلمّت إحداهن ما يتسير من مال كان محجوزاً باسم هذا المسجد إلى قيّم المسجد الذي دعا لي بالبركة والحياة السعيدة بحق المسجد. نثرت إحدى القريبات نقوداً معدنية فوق رأسي، أعقبتها صديقة أخرى بنثر الحلويات. ستبدأ الحياة من هذه الأصابع. قضيتُ نذر أمّي. لو كانت تعرف الآن لابتهجت.

انطلقت السيارات بنا نحو الحيّ وليست الطريق في العودة كالطريق في المجيء. قليل من الألم في أسفل البطن. الطريق لا يسفر لكنّه الخيال. فلمّا وصلنا غادرت الخاضبة مريم إلى بيتها للصلاة والراحة استعداداً لليلة الأولى. استقبلتني أمّي بحضنها ونسوة الحيّ بالصلوات على محمد والجباب والزغاريد والغناء يملأ المكان. كأنّي رأيت أمّي لا تنظر إلاّ إلى أصابعي. ما كنت أستطيع المشي،

توقفت بعد خطوتين نحو باب بيتنا فحملتني جارتنا زهراء بنت الحاج محسن إلى «الجَلسة» في فناء البيت وكانت تزهو بأقمشة ضُربت بعناية ومزاج النساء في العرس. هنا في هذه الجَلسة تجلس العروس ثلاث ليالٍ. هنا تكون «جلوتي». هذه الجلسة الأخيرة بعدها ستظل واقفة طوال حياتها على شؤون البيت.

- حنّاك عجين خاتون.

فلما جاء الليل وفرغ المصلون تجمعت الصديقات والجارات من حولي قبل أن تصل الخاضبة مريم وصرن يغنين:

حناش عجين خاتــون حناش عجــين
ولين دزوش على المعرس بالش تستحين
حنــاش ورق خـــاتون حنـــاش ورق
ولين دزوش على المعرس زخّش العـرق[1]

ها قد بدأ العرق يتصبب قبل مجيء رَجلي وقبل «الدزّة» عليه. ليس حياء لكنّه الخوف في هيئة الفرح. لا أعرف عنه شيئاً غير أنّ أهله طيبون وأنّ اسمه «جاسم» على اسم عرّيس كربلاء القاسم ابن الحسن. بيتنا في شرق الحيّ وبيته في

1-دزوش: أدخلوك للزوج. زخش: تصبب العرق.

الغرب. وافق أبي، وافقت أمّي فوافقت. وافق أبي ثمّ سافر حتى لا يشاهد ابنته عروساً. وكان الرجال الآباء يتوارون عند عرس بناتهم أو يحضرون منكّسي الرؤوس خجلاً. ليلتها يقول عنه الرجال إنّه «مغلوب». لكنهم يبالغون في الظهور أيام عرس أولادهم الذكور فالأب حينها «غالب». اختفى أبي خارج البلاد. ربّما يراني حبّة هيل «هيلة» يقرضها رجل في فمه.

فجأة علا صوت الغناء علامة على مجيء الخاضبة مريم صاحبة قلب كبير يسع نساء الحيّ، تغيّر صوت الطبول، يسمونها طبولاً بينما تتخطى الخاضبة الجالسات على فُرش العرس وهنّ يحيينها ويرددن عليها السلام حتى وصلت إلى جلستي:

بالهيـــل بالهيـــلي باالهيـــل بالهيـــلي
يا من شعر راسها يسحب إلى الذيلي
أم عيسى خضابة أم عيسى خضـابة
تجي تخضب العروس في أظلم الليلي.

بينما البيت كلّه يصدح بالغناء، قالت:

– يالله.

ولم تزد على ذلك، قامت إحدى صديقاتي بوضع مسند قطني أسفل رجلي وأنا جالسة على آخر أخضر أعدّ لذلك فصارت قدماي جاهزتين للحناء. سمّت بالرحمن وبدأت تعمل في عجين أحضرته معها، تأخذ منه جزءاً طولياً وتفرده بين راحتي يديها مع قليل من ريقها فيستحيل عجينا اسطوانياً سهل التشكيل، تضعه على حواف باطن قدميّ في هيئة أمواج البحر وأقواس ثلاثة متتالية تتدرج في الصغر. تتأكد من ثبات العجين بالمرور عليه والضغط قليلاً قليلاً، فإذا انتهت وضعت عليه الحناء البارد فتسري رعشة من باطن القدم إلى باطن العنق فتدفأ قلادة المشموم.

الفتيات لهنّ الغناء يتباهين بأصواتهن رقّة وعلواً. مجموعة قرب باب البيت وأخرى في الداخل. طبولهن علب التنك وحاويات الماء البلاستيكية. الصوت لَمَنْ لها الصوت الأقوى. كورال غير منتظم، وقد تنتظم أصواتهن وهذا قليل. هذه فرصتهن الوحيدة للغناء جهراً وعلناً وغير ذلك لهـنّ الصمت أو الغنـاء في خلـواتهن. وهـو صمـت أيضاً.

تنتهي أم عيسى من القدمين فتبدأ باليدين ولا تختلف أشكاله كثيراً عن الرجلين. تثني أم عيسى ركبتها وتضع

يدي عليها وتبدأ في العجين ثمّ وضع الحناء عليه. ولا عجين في نصف الكف الأسفل بل حناء كلّه. بهذا الوضع نمت مكاني حتى الصباح وجواري ثلاث من صديقاتي ممّن سمح لهن أهلهن بذلك. هذا مكان نومي لحين انتهاء المراسيم. لن يرى أحد وجهي إلا من أهلي.

أزلت الحناء والعجين في الصباح. تجمّعت النساء ظهراً للغداء وكان غداء الخاضبة أم عيسى خاصاً جداً «رافع راس». لا أذكر أنّي أكلت بما يكفي. زاد عدد النساء عصراً لقراءة ما تيسر من مولد النبي محمد وقراءة قصة زواج النبي من السيدة خديجة بنت خويلد. ويكون مكان القارئة الأساسية جواري وأنا أجلس على مساند قطنية لأبدو مميزة وواضحة. وقد تقف النساء لحظة وصول القارئة لحدث مهم في قصة الزواج مثل خروج النبي عليهم بوجهه المنير أو خديجة في جلوة من جلواتها السبع:

«قال الراوي ثمّ سَمعَ الناسُ منادياً يُنادي من السماء أنّ الله قد زوّج الطاهر بالطاهرة والصادق بالصادقة ثمّ رفعَ الحجاب وقد خرجَ منه جَوارٍ بأيديهم نِثارٌ ينثرنه على النّاس فأمرَ اللهّ عزّ وجل جبرئيل أن يُرسل على النّاس الطيب على البرّ والفاجر وكان الرجل يقول لصاحبه من أين لك هذا

الطيب؟ فيقول هذا طيب محمد ثمّ نهضوا في إصلاح شأنهم والولائم وانصرفَ النّاس إلى منازلهم ومضى النبي إلى عمّه أبي طالب وأعمامه حوله واجتمعت نساء بني عبد المطلب وبني هاشم في دار خديجة والفتيان يضربون الطارات والدفوف. أفلح من يصلي على الرسول»

بينما تقرأ النساء قصة زواج الطاهر بالطاهرة تضع الخاضبة مريم «أم عيسى» الطرق الثاني «حناء العجين»، فيصير اللون على اللون فيتركّز حتى يميل إلى السواد. وكانت القارئة الأنيقة فاطمة بنت الملا «أم عبد الرزاق» تقرأ وتشدو كلّ حين بأهازيج الشعر كلّما مرّت بذكر أحد الأطهار من أهل البيت مسحتْ على رأسي لتهبط بركتهم عليّ في حياتي القادمة. تقول أمّي إنّ فاطمة الزهراء تحضر العرس، تمشي لا تخرم مشيتها عن مشية رسول الله سمتاً وهدياً، تضيءُ القلوبَ والمكان؛ لذا عليّ التأكد من أنّ وجهي مستور بالغشوة احتراماً لها. ولوجهها المضيء. كانت تحفظ وتردد ما قالته عائشة في فاطمة «كنّا نخيط، ونغزل، وننظم الأبرة باللّيل في ضوء وجه فاطمة». لا أعتقد أنّ أمّي حوّلت وجهها عن وجهي لحظة.

في اليوم الثالث جاءت أم عيسى ضحىً. اطمأنت

على «حناء العجين» أولاً واستعدت للخضاب. هذا اليوم لا يشبه سابقيه فالصديقات حولي أكثر، ونسوة يمسكن أطفالهن في انتظار نصيبهم من الخضاب. تدني الخاضبة أم عيسى مخضبتها الفخارية التي تشبه مبخراً فخارياً مسطحاً. ولكثرة ما مرّ بهذه المخضبة من عرس صار لونها لون الخضاب. كم عروسٍ ذابت في هذا الخضاب؟ تسكب قليلاً من ماء الورد في المخضبة ثمّ تخلطه بسبابتها اليمني في حركة دائرية حتى إذا ما تشبّعت بالخضاب العالق بها مسحت به أسفل إبهام يديها اليسرى ثمّ مررت إبرة صغيرة عليه ويدي دفتر رسم على ركبتها منضدة. كانت أم عيسى أقرب امرأة للعروس بقلبها الطيّب المطمئن. لا يدخلني قلق أو خوف إلا في غيابها. وما كانت تغيب. أم عيسى لا تنسى العروس أبداً. تضع قلبها على قلب العروس فرحاً لا ينسى.

تنتهي من اليدين فتبدأ ترسم في البياض الذي خلّفه العجين في حواف قدميّ المرفوعتين على مسند قطني. تفعل ذلك كلّما احتاجت حتى تنتهي من باطن قدميّ. ترسم «دبو حيّة» في بياض العجين. رسم يشبه إلى حدّ ما حيّة تسعى. وفي ثنايا هذا السعي وبطونه تترك أم عيسى هلالاً ونجمةً في كلّ بطن. بعدها ترسم خطّين متساويين متقاطعين يشبهان

الصليب في كلّ زاوية من زواياه الأربع حرف الهمزة لكن بدون ألف. تنتهي من باطن وحواف القدمين وتنتقل لظهر ونعش القدمين، ترسم بالخضاب أعلى كلّ أصبع هلالاً ونجمة.

قالت امرأة غريبة «مَنْ هذه المرأة التي تخضب العروس ولا تبتسم؟» فقيل لها: مريم، أم عيسى وهي هكذا جادة حتى تنجز عملها. قالت الغريبة: «سوف اقترب منها ولن أدعها حتى تبتسم». راهنت النسوة على ابتسامة واحدة فقط. فلما اقتربت لفتت انتباهها ثمّ أنشدت:

ياسين واسم الله على النسوان لبس الدفيف ما يملونه
لين عزموا على الهيامة حتى رجلهم ما يشورونه[1]

رفعت جدتي رأسها وابتسمت. أدارت الغريبة رأسها نحو النسوة وهزّت رأسها.

كانت النساء تقاطع أم عيسى بطلب رسم «النونو» على أيدي أطفالهن فتفعل، وما فضل من الخضاب للقريبات منّي ثمّ الصديقات. كلّ ذلك في مخضبة ما كان أحد يجزم بوجود خضاب فيها، تماماً مثل أوّل العرس وأوّل الحياة مع

1- الدفيف جمع دفة وهي العباءة وهي هنا إشارة عن عظم رغبتهن في الخروج من المنزل. والهيامة المبالغة في الخروج. والرجل: الزوج. ما يشيرونه: لا يستشيرونه.

رجل. حياة تبدأ بالخوف ورجفة أوّل لحظات كشف الوجه ثمّ كشف كلّ شيء. قيل لي وصيةً « لا تصيرين عنيدة ،كوني مطيعة له فتحت السرير سيف عظيم فخفت. لا أحد يرى حناء وخضاب باطن القدمين غيره. ولا يبدو لي أنّه توقّف عند ذلك أو رآه. لحظتها تكون الرجلين خلف عينيه وقلبه على قلبي.

أسمع صوت جارتنا خدّوج تنادي أم عيسى:

– أم عيسى ارسمي «نونو» في يد ابنتي كي لا تتبعها ريحة من العروس.

نُونو

كلّما أوشكت جدتي مريم على الانتهاء من خضاب العروس انتعشت الصغيرات وانحصرت أعينهن اللامعات الجديدات على المخضبة، من ورائهن طفلات تنافسهن في غياب الصبر وفي ما بقي من خضاب. تمتدّ أيديهن فوق الرؤوس مقلوبةً جاهزة لرسم صغير جداً، هذا يكفي:

– بس نونو. بس نونو.

تلتف جدتي وبالإبرة ترسم النونو: خطين متساويين، متقاطعين في منتصفهما، عند كلّ زاوية من زواياهما الأربع نقطة. هذا هو «النونو» ترسمه في يد واحدة لكلّ طفلة. وقد تحضر النسوة طفلاتهن يمسكن ويمددن يداً واحدة نحو جدتي:

– نونو يا أم عيسى.

وللطفلات مقاطعة جدتي عند خضاب أخوات وصديقات العروس وطلب النونو، وليس ساعة تخضيب العروس. لا ترتاح جدتي لذلك.

سوف يكبر «النونو» في أيديهن ويختفي قليلاً قليلاً

ويعود صغيراً في بهجة عرس جديد، بينما دعوات النساء
والأمهات لهن ببلوغ خضاب عرس بهيج.

الطَرق

تعرف جدتي مريم خبر العرس في الحيّ قبل الناس جميعاً. تزورها نسوة في بيتها في غير ميعاد فتعرف أنّه عرس. يعرف طفلها الصغير عيسى الخبر فيفرح فالعرس يعني الذهاب إلى سوق المنامة. في جلسة سريعة مع نسوة العرس يحدث الاتفاق كلّه. تتعهد جدتي ملابس العروس، القماش، الخياطة، مكان تجليس العروس فترة العرس «الجلسة» وغرفة العرس المؤقتة «الفرشة»، وأخيراً الخضاب والحناء أحدهما أو كلاهما. لا تفاصيل غير ذلك. لا تفاصيل في الاتفاق والمعتمد كلّه حبّ الناس في الحيّ وصفاء نفوسهم وخواطرهم.

تغادر جدتي مع لمّة من نساء العروس في يوم معلوم نحو المنامة مصطحبات الطفل عيسى. أقمشة العرس ليست في سوق المنامة لكنّها في بيوت لها دكاكينها في سوق البزّ. فقد جرت العادة أن يستخدم البزازون بيوتهم مخازن للأقمشة تقصدها النساء اللواتي لا يرغبن في السوق. بيوت البزازين دكاكين النساء. تنشر زوجة بزاز منامي طاقيات الأقمشة أمام جدتي ونسوتها. تنشر القماش على القماش

وكلام العرس ألوان. لم يحدث أن غادرن دون القماش. الاختيارات كلّها في هذا البيت وهي نفسها في البيوت الأخرى.

لكلّ عرس زيارة واحدة لا أكثر إلاّ الحناء فقد يتكرر في باطن يديي العروس وباطن قدميها. الحناء فقط لا الخضاب.

في اليوم الثاني من الحناء تتفقده جدتي في يدي وقدمي العروس وتقرر عمّا اذا احتاج إلى إعادة أم لا.

- يحتاج إلى طَرق.

تقول جدتي ذلك بعد فحص سريع عميق. كشف العارفة. تقول ذلك فيعرف أهل العروس أنّ جدتي ستعيد الحناء ثانياً. هذا هو الطَرق، إعادة الحناء مرتين أو ربّما أكثر.

ينتشر الخبر بينما نسوة يعدن لذاكرتهن أرشيف العرس في الحيّ يسردن أسماء وحوادث اللواتي احتجن إلى الطَرق. الأرشيف يخفف وقع الحدث وقد يرفع الحرج. وكثيراً ما حفظ الحدث وغاب اسم المرأة.

تعيد جدتي الحناء. تضع الحناء على الحناء وتدعو لها بالتوفيق وأن لا تحتاج لطرق غيره. وحين يتكرر الطَرق تقول جدتي صريحة لأهل العروس:

- بنتكم ما فيها دم. إللي فيها دم ما تحتاج طَرْق.

ثمّ تخفّف ذلك مازحة:

- الحنه ما تحب بنتكم. إللي تحبها الحنة تصبغ فيها.[1]

ربّما في الطرق فرصة للواتي لم ينلن فرصة للحناء في المرّة الأولى، فلا يقلّ عدد الحاضرات ولا التصاق الأخوات والصديقات بجدتي. التغيّر المرتجى الوحيد في يدي وقدمي العروس. العيون كلّها على اللون.

1- الحنه: الحناء، وتصبغ فيها: يظهر لونها فيها.

أنيسة

هَيَّأن لها المكان والضوء. هنا ضوء كثير ومكان يسع النساء والصديقات الصغيرات. جلست العروس «أنيسة» في مكانها تغطيها الأقمشة الخضراء الزاهية بنقش وخيوط الذهب، على وجهها غطاء من قماش أبيض. صديقاتها جوارها يتحدثن معها همسا، تابعات لها يأتمرن بأمرها. لن يتكرر هذا مرّة أخرى. العروس ملكة.

الضجّة بالغناء عند باب البيت علامة على مجيء الخاضبة جدتي مريم. تدخل ولا تسأل عن العروس لتميّز هيئتها وإشراق مكانها بها. إلا هذه المرّة سألت: وين عروسكم؟ فأخذتها خالة العروس إليها. جلست جدتي مريم أمامها بينما صديقاتها ينظرن بلهفة إلى فنجان الخضاب. ذلك اليوم تميزت الصديقات بابتسامات فيها فرح لا يأتي إلا في عرس. تظاهرت اثنتان منهن بالاتزان لدقائق معدودات متربعات في جلستهن خلافاً لبقية الصديقات فقد كنّ شبه واقفات. وكانت جدتي تسمع كلمة «صديقتي» بدلاً من ذكر الأسماء تدور بين الفتيات. طلبت جدتي من العروس إخراج يدها من بين أغطيتها وأن تضعها فوق ركبة جدتي لبدء

الخضاب ففعلت. قالت جدتي: «هذه ليست يد عروس. ماذا أفعل الآن؟ هذه يد طفلة ليس إلا» فيأتي صوت امرأة من بين الجموع: «يا أم عيسى، أي عروس طفلة» فتغامزت الصديقات في فرح، وقلن كلاماً كثيراً لم يسمعه إلا هنّ.

أنهت جدتي خضاب اليدين والرجلين، الصديقات هدأن وصرن ينظرن إلى أنيسة بما لم يفعلن من قبل. باركت لها جدتي وقالت: الآن صرتِ امرأة.

الصديقات يتنافسن على وضع أيديهن الصغيرة على ركبة جدتي بما فضل من خضاب العروس، وهو كثير هذه المرّة.

الديرم

لجدتي مريم ولنساء حيّها عمل في الوقت. لا مساحيقَ لتجميل الوجه، لا مراهم، لا كريم أساس، لا روج، ليس سوى الكحل والديرم وليس في الحيّ درّامة. وكلاهما: الكحل والديرم أدوية أولاً وربّما للزينة. لا عطراً نفاذاً غير زيوت عطرية لا تتجاوز أنواعها اثنين. لا تخرج المرأة في عطر، ولا تحوم في الحيّ فتلحق بها النساءُ نعتَ «حوّام». وقد يتهامسن حولها «طيّارة لن تعود حتى يطير العطر منها». وافتخر رجل في الحيّ لولده –الذي استنكر تغييب أمّه في البيت– قال:

– منذ أن أخذت أمّك وهي عند حوض الماء «الجباية»، تغسل الثياب، تمردها وتعصرها.

رأيتُ أمي تنظر من ثقب بين رادات السعف والباب الغربي لبيتنا إلى عالم الدين السيد علي كمال الدين واقفاً أمام بيت بائع القماش إبراهيم البزاز تغطي نصف وجهها بمشمرها، أناديها فلا تلتفت. «النظر للعالم عبادة» ولو من ثقب.

لا زينةَ للنساء لكن لا حرج في رشح الوجه بماء الورد. في حيّنا جاءت النساء أولاً ثمّ جِيء بالوقت فيه الحياة الكادحة بتصاريفها كلّها إلا زينة النساء.

تنتظر مريم بنت يوسف «عموتي» صديقتها جدتي مريم على عجل. لا تجلس، تبقى واقفة في حوش البيت وتستعجل صديقتها بالخروج. هنّ لايستعملن مصطلح «صديقات». وبينما تنتظر تخرج قطعة من «الديرم» تمضغها حتى إذا ما لانت فركت بها أسنانها وشفتيها فصار لونهما لون الديرم البني المحمّر. لمحتها طفلاً صغيراً وهي تفعل ذلك فانزعجتْ وأنزلتْ عباءتها على نصف وجهها واستعجلتْ جدتي. كانتا تهمان في الذهاب إلى عرس أو مولد إمام. لا يوضع الديرم في غير ذلك.

للديرم رائحة ضعيفة وطعم حار ولون واحد على شفاه النساء، لا لوناً آخر يميّز بين النساء إلا بما اختلف لون الشفاه نفسه عن الشفاه. لون المرأة في حيّنا واحد، لون حياة أكبر من الوقت.

البزّاز

الحيّ في الصباح للنساء والكلام وليست لقاءاتهن مواعيد.

ولأنّ الوقتَ لا يكفي تتحدث النساء كلهنّ في آن واحد قدام بوابة دكان بائع الأقمشة الوحيد في الحيّ الحاج إبراهيم بن عيسى البزاز. ليس المهم الإصغاء لكنّه إخراج كلام تعتّق في صدورهنّ وتسكّر بأحلام لا يقلن لأحد أنّها أحلام. علامة الحلم كلام من القلب ينتهي بدعاء.

يأتين من جهات الحيّ: غربه وجنوبه وشرقه ووسطه ولا اسم للشمال غير البحر وعماير «ورش» صنّاع السفن القلافين. الرجل الوحيد الذي لا تستر نساء الحيّ وجوههن عنده عنه هو البصير الحاج إبراهيم البزاز. بعضهن تستره من باب: إن كان لا يرانا فنحن نراه. تقول ابنته البكر أنّوس «أنيسة»: أبي يرى، فلم تطلب منه امرأة طاقية قماش إلاّ واضع يده مباشرة عليها هي هي لا التي جوارها ولم يسألها للتأكد: هذه أم هذه؟ إنّه يرى الألوان.

باب صغير لا يعبره البزاز إلى حوش البيت إلاّ بعد أن ينزل إلى الأرض قليلاً. ينتهي من صلاة الصبح في آخر الدكان فتحضر له أنّوس الإفطار والشاي. لا عجلة فهو سيد عمله، وهو كما قالت أنّوس: «يكدها وياكلها معنا» حتى إذا ما أشرقت الشمس خرج يتحسّس جدار البيت بيده اليمنى حتى يضعها على قفل بوابة الدكان ذات اللون الأخضر. رزمة من المفاتيح لن يرتفع منها إلى القفل إلّا المفتاح الصحيح.

ما إن يفتح الدكان ويدخل الضوء حتى يشع المكان بألوان طاقيات القماش مصفوفات عمودياً مائلات للداخل لا يمنع سقوطها غير خيط سميك بين جدارين. الطاقيات القصيرة العريضة مصفوفة على رفوف أفقية تعلو العمودية منها. رائحة القماش الجديد الذي ينتظر روائح أجساد النساء المتعبات. فإذا أتمّ فتح الدكان جلس في آخره ينتظر نسوة الحيّ وتحيات الذين يمرون به في الصباح وكان بائع الكاز «الكيروسين» أكثرهم تحيةً بعربة يجرّها حمار ثبّت خلفها خزان الكاز.

تتجمع النساء، تلقي كلّ واحدة منهنّ التحية وتسأله عن زوجته أم خليل وبناته وأولاده. يجيبهنّ واحدة واحدة

بابتسامة بالكاد ترى ولا يملّ. تسأل بعضهن عن جديد القماش وأخريات حددن قماشهن قبل المجيء. يشترين بالوار وهو مجموع ثلاثة أذرع. الوار مسطرة من الحديد يقلّبها في القماش ولا يقطع حتى يسأل المرأة عن المراد مرّة أخرى. يدخل بعضهنّ إلى الدكان ويخترن القماش بأنفسهن فيرحبّ بهنّ. أما اللواتي لا يرغبن في الوقوف في الطريق أمام دكانه واللواتي يعتبرن شراء القماش شأناً نسائياً فيدخلن البيت فتعتني ابنته أنّوس وزوجة البزاز «أم خليل» بهنّ.

تدفع النساء قيمة القماش مباشرة واللواتي لا يحملن المال وهن كثيرات تُسجلّ أسماؤهن في دفتر الدين. يستدعي البزاز ابنته أنّوس التي لم تدخل المدرسة، يطلب منها تسجيل الدين فتفعل ذلك بإشارات تعرفها وحدها لحين مجيء شاب من الحي في آخر النهار يسجّلها بوضوح في الدفتر.

تروي أمّي بأنّ اقتصاد البيت هي جدتي مريم، تضع النقود في محفظة خضراء لم تغيرها قطّ وأنّها المتصرّفة في كلّ شيء حتى في نوع ولون قماش ما تلبس. تشتري لها القماش من ثلاثة أماكن: السوق أودكان البزاز أو من سيارة البزّ التي تأتي إلى الحيّ في مواعيد معروفة. لكنها قلّما أخذت رأيها في

ما تحبّ من قماش أو ألوانه على الرغم من قرب دكان البزاز فهو لا يبعد سوى عشر خطوات عن الباب الغربي لبيتنا. كانت جدتي مريم جيب البيت المحكم في الرخاء والمحن.

لا تذكر أنّوس هل كانت جدتي مريم على قيد الحياة حين تزوجت من السيد رحمه الله أم لا؟ هل كانت من النساء المواظبات على الشراء من الدكان؟ لكنّها تذكر جيداً رفقتها لخالتها «خوّار» في فرشات العرس. رأتهما كثيراً تزينان الفرشات بالقماش الزاهي «سناحات» والمرايا في لياقة لم تقدم عليها النساء بعد رحيلهما.

يبيع البزاز مستلزمات الخياطة أيضاً مثل السحابات والخيوط بأنواعها والإبر والأزرة المختلفة الشكل واللون والحجم وتلك القطع المعدنية الصغيرة التي تُثبتها النساء في جيب صدر الفستان أو الثوب وتتحكمن في فتحه وغلقه «جك جك». وربّما باع بعض الحلويات يسكت بها أطفال اصطحبتهم أمهاتهم.

يشتري البزاز مستلزمات الخياطة من الباعة البهرة في سوق المنامة، وهم سادة السوق. بينما يعتمد في شراء طاقيات القماش من دكانين: العرادي وطرادة. وقد يعود بطاقيات القماش بعد أن يدفع لهما ما تيسّر لثقة صنعتها سنوات. يضع

البزاز الطاقيات فوق رأسه ويتأبّط بعضها عائداً للحيّ. وربّما ساعده أحد أولاده في الحمل لكن الحصة الكبيرة منها له. يعرف ثقل القماش فوق رأسه ولا يشتكي ويسمع حفيفه حين ينشره للنساء ويطويه. وما إن يعود حتى تفرش نساء بيته القماش الجديد ويتنبّأن بإقبال النساء عليه أو نفورهن.

لا تعرف أنّوس متى توفي والدها إبراهيم البزاز. لكنّها تؤرّخ الأحداث وفق الحياة والولادات الجديدة. هذا شأن نساء الحيّ: يُؤرّخن للموت بالحياة. «لا أتذكر التواريخ. يوم توفي والدي كانت زوجة أخي خليل حامل بولدها البكر «منير» في شهرها الرابع لكن لا أعرف في أيّ سنة. لا أحفظ السنوات». قالت أم منير«ولدت منيراً بعد خمسة أشهر من وفاة عمي». توفي البزاز في أحد أيام مايو العام 1972 . كان الإعلان عن وفاته صرخة امرأة من بيت البزاز جعلت مزاج الصابح الباكر كئيباً. كان الموت الأول الذي ألتفتُ إليه في الحيّ؛ لذا ظللت أنظر إلى باب بيت البزاز من عريش بيتنا. تجمع الرجال قدام باب دكانه المغلق. الرجال في حيّنا يؤكدون الموت والنساء علامات الحياة. رحل البزاز وظلت الألوان في الحيّ. لم يُفتح باب الدكان. لا أحد يجرؤ على ذلك لكن ابنته أنّوس أحيته من بابه الصغير الداخلي

وصارت النساء يدخلن الدكان منه. يترحّمن على البزاز ويهللن ويدعين له بالرحمة والمغفرة.

بعد ثلاثين عاماً على رحيل البزاز، جاءت امرأة تسأل وتبحث عن بيته، قالت إنّها اشترت قماشاً من الحاج إبراهيم البزاز وإنّها ترغب في سداد فاتورته.

صمت القلافين

البيت الذي كان يضجّ بالكلام، بحركة الحياة، صار جدي لأمّي «الحاج رمضان» يشحنه بالصمت. صار وحيداً بعد أن ماتت زوجته الأخيرة، جدتي «خديجة» واستقلّ أولاده في بيوت مع عوائلهم الصغيرة. بيتٌ قديم جداً من سعف النخيل، رام جدي إعادة بناءه فلم يجد واحداً من متعهدي بناء بيوت السعف «العشيش» على قيد الحياة: الحاج أحمد المخترب وعبد الله أبو عبجل بشاربه المميّز من بعيد؛ لذا بنى البيتَ من الخشب الرخيص جداً. ليس ذلك مهماً عند جدي القلاف القديم المنهك.

تزوج جدي الحاج رمضان خمس نساء من قرى ومناطق مختلفة: واحدة من جزيرة سترة، واحدة من المنامة، واحدة من قرية جدحفص، واحدة من المحرق، وواحدة من حيّ النعيم وهي جدتي. ولشدّة فحولته شكته الستراوية إلى عالم الدين السيد علوي الغريفي وطلبت الطلاق بعد أن وضعت مهرها بين يدي السيد. قالت: هذا مهري أردّه إليه وما استمتع به لا أريد عوضاً عنه. يقول خالي البصير

عبدالله: كانت زوجات أبي «نصف عمر» وقد متن كلّهن على حياته.

لا يأت ذكر جدي الحاج رمضان في بيتنا إلاّ موعد الغذاء. ترسل أمّي أحدنا يحمل الغذاء إليه. كلّما أخذتُه إليه وجدته في المطبخ الخشبي المظلم الواسع جالساً في آخره على كرسيّ يرفعه عن تراب الأرض ست بوصات، يسمونه كرسياً، قدّامه أثافٍ ثلاث بينها جمر قليل وكثير من الطفو والرماد تجمعا منذ سنين، يصلح نارجيلته كلّ لحظة وقد أدار ظهره للباب ولِمَنْ يدخل البيت.

لا أصوات غير حركة ماء النارجيلة وسعلات مختنقات سريعات، وصوت الصمت المستطيل. ألقي عليه السلام فلا يردّ ولا يلتفت ولا يهتم. أضع الغداء في خزانة الأواني في وسط حوش البيت. وعند المغادرة أخبره عن الغداء كما أوصتني أمّي. لا يلتفت ولا يقول كلمة واحدة، يضع يده في جيب ثوبه ويمسك النارجيلة بالثانية، يخرج قطعة نقود معدنية: خمسة وعشرين فلسا في الغالب، يرفع يده أعلى رأسه ويرميها نحو الباب، نحوي، ولا يلتفت. يستأنف هدوءه العميق ومزاج النارجيلة ويستأنف الإصغاء لخاطره.

ورث ولده النجار عبد الله «خالي» وحدته مع فقد بصره. لكنّه عالج وحدته المظلمة الطويلة بالضحك العميق والسخرية وعالج فقده المتأخر العارض لبصره بتصنّع العمى والاعتذار للذين يصطدم بهم في طريق أو مجلس بأنّه خطأ غير مقصود.

صَمتُ جدي «رمضان» لا يشبه صمت جدي لأبي «علي». فالصمت عند الرجال في سنّ جدّيَّ أنواع. أكثر الصمت عند جدي «رمضان» جاءه من شقّه لجذوع الأشجار الصلبة وتهيئتها لتأخذ مكانها في هياكل السفن «القلافة». صبر وصمت طويلان في ساعات الشقّ الطولي للجذوع العظيمة. الكلام لمنشار عظيم وساعدين مكتنزين بالقوة وخفّة الحركة. وقد يستغرق الشقّ أياماً يكون الزمن فيها من صمت ولياقة مَنْ يرى الشجرة سفينةً.

أنجب جدّي القلاف نجارَين، أولهما لا يحبّ الصمت، لا يوقف كلامه إلاّ صوت المطرقة، ينادي نجاراً بعيداً، يرفع صوته، يحدثه عمّا صار له أمس مع زبون لم يقدّر عمله المتقن ولا نوع الخشب المستعمل فيه. وإذا صار يعمل وحده، ينجز خزانة ملابس أو سريراً أدار الراديو على ما يحبّ سماعه من الأغاني. لا يحبّ مكاناً لا كلام فيه. وحين صارت منجرته

الصغيرة قريبةً من حوزة الغريفي الدينية، وصار رجال الدين يمرون به وبها، يتوقّف بعضهم للكلام وتحية السلام فيقول لهم ضاحكاً: «فتاوى الدين هناك، وفتاوى الدينا هنا عندي». يضحكون فيدعوهم لشرب «اسكانة» شاي.

لا يهرب جدّي بصمته من شيء لكنّه وجد حياته تحتاج إلى الفعل الكثير والكلام القليل جداً، الذي هو أخو الصمت. ربّما لهذا -وعبر عشرات السنين- صار صوته مكتوماً، قصير المسافة حين يرفعه ويطلقه. الصوت الذي لا يُستخدم يَكْتُم.

جدّي المشحون بصمت القلافين وصوت أمواج البحر لا ينتظر الباب ولا ينتظر الكلام.

النجّار

لخالي النجّار (عبدالله رمضان) طريقان يقطعهما بدرّاجته الهوائيّة كلّ يوم: الأوّل، من البيت إلى منجرته الصّغيرة في سوق النّجارين بشارع المهزع في المنامة، والثّاني، من المنجرة إلى البيت، ولا أكثر من ذلك... حتى ذهب بصره، وعميَ الطريقان.

رأيته بثوبه المزخرف بلطخات غراء الأخشاب، وغترته البيضاء المعقودة، كانت بيضاء، ونيّته الواضحة، يذرع الطّريقين بدرّاجته الهوائيّة، ينحني عليها حتى يكاد صدره يلامس مقود الدرّاجة؛ وهو إذ يفعل ذلك يدوس برجله اليمنى على دوّاسة العجلة فيميل جانبه الأيمن أكثر، ترتفع الدوّاسة فيرتفع فيهبط جانبه الأيسر فلا نعرف مَنْ الذي صار في عجلة الآخر! منْ يراه يظنّه يراوغ الريح بكتفيه القويين كيّ يمرّ بين تيّاراتها، ولم يكن يراوغ غير الوقت.

في طريقه إلى منجرته يمرّ بأماكن ما تغيّر فيها إلا وجوه من فيها، طريق مستقيم: الحيّ، شارع الشّيخ حمد، مسجد الحاج مكّي، شارع اللؤلؤ، كراج السّيسي، أوّل السّوق،

أطراف حي أبو صرّة، مسجد الشّيخ راشد، منجرة جدّي وقد سبقه مشيًا، حي العجم، مسجد اليماني، فندق النّخيل، سوق المقاصيص، سوق الحدادة، تسجيلات مها، مكتبة الدّرازي، كنيسة اليهود، ودكاكين الباعة في السّوق، ينحرف بدراجته يمينًا في أوّل شارع المهزع: مكتبة البحرين، دكّان طائفة البهرة لأدوات النِّجارة، تبدأ بعده سوق النّجّارين حتّى جدار جامع المهزع، وقد تُسرق دراجته فيخبرنا وهو يضحك. يذهب إلى منجرته مشيًا حتّى يشتري واحدة. وفي إحدى المساءات أوقف درّاجته بجوار مسجد دخله للصلاة، لكنّه حين خرج لم يجدها، فقال محدّثاً السّارق المجهول لعلّ الجنّ يحملون رسالته إليه: «إنزين... دخيل بالله خذ السّيكل ورجّع لي العشا» وكان قد اشترى عشاء لبيته: خبزًا حارًّا وكيس سبموسة.

حدّثني أبي عيسى بن مريم قال: «سنّدت درّاجتي الهوائيّة في البيت، انشغلت عنها بالعمل، فأخذها خالك عبد الله، ومنذ ذلك اليوم صارت الدّرّاجات وسيلته في الرّياح».

وكان إذا أراد أحدٌ النّيل من خالي النّجار ينتقم منه في درّاجته، يفرغ عجلتيها من الهواء، يعطّلها، يرميها على

الأرض فتصله شتيمة تليق به. يقول أخي هاني: دخل علينا أخي(رضي) والدّم يسيل منه، منعت جدّتي مريم أمّي إسعافه، أخذته من يده إلى بيت مَن فعل ذلك...! سيكون الدّم شاهدًا واضحًا على الجريمة، وكان الفاعل (حسن)؛ الولد البكر لخالي، أوقفت جدّتي أخي في وسط البيت، وتهدّدت في الفاعل، ولامت أمّه(سلامة)، الّتي اكتفت بالسّكوت، لكنّ ذلك لم يكن يرضيني ولا يرضيك. انتظرنا دخول خالي بيته ظهرًا ليرتاح، وأزلنا صمّامات الهواء (الولفات) وأفرغنا العجلتين، وهربنا. ولسنا نعرف حتّى اليوم أيّة شتيمةٍ جهر بها خالي حين رأى فعلتنا.

أخذ جدّي(رمضان) ولده البكر(عبد الله) إلى سوق النّجارين صغيرًا، فلم يخرج منها، حين غادرها جدّي عائدًا إلى صناعة السفن(القلافة) فيما تبقّى له من العمر، استقلّ (عبد الله) في المنجرة، وصارت له سنوات طويلة، غيّر مكانها مضطرًّاً مرتين، آخرهما كان إلى جوار (حوزة السيد علوي الغريفي الدينية) في حيّ النّعيم، يمرّ به رجال الدّين في طريقهم إلى الحوزة فيقول لهم ضاحكا كعادته: «منْ أراد فتاوى الدّين يذهب إلى علوي، ومنْ أراد فتاوى الدنيا فهي عندي».

أوّل منْ يستيقظ في بيته فيشعل النّار والبيت بالحركة، يُحَضِّر الشّاي لعائلته، ويشتري الخبز. لا ينسى أن يعدّ شاياً أحمر مخدّراً بمزاجه الصّباحي الصّامت الصّابر بجوار النار ليحمله معه إلى منجرته، يتقوّى على العمل بشيئين: الشّاى الأحمر وصوت الراديو .وهو يعدّ الشّاي على الوقت الذي يقضيه في منجرته، وقلّما انتهى أحدهما ولم ينته الآخر، كأنّه صبّ الوقت في الشّاي. وفي ظهر يوم الجمعة توقف الإذاعات بثّ أغانيها، تسبدل الدعاء وخطبتي صلاة الجمعة بها، فيقول: «اخترب الراديو»، يطلب من القريب منه إطفائه.

وحين ندرت ألواح (البلايوود) الّتي يصنع منها النّجّارون سطح الأسرّة، جرّب(عبد الله) أن يستبدلَ بها ألواح خشبيّة مفردة، بينما بقي النّجّارون في السوق ينتظرون انتهاءه من العمل، وفحص الفكرة، واختبار السّطح، فلمّا انتهى نام فوقه وأكّد متانته، وسأله نجار من بعيد: (يروج لو ما يروج)؟ أي هل يهتز؟ وكان قصده خبيثاً، فيأتيه الرّدّ خاطفاً تتبعه ضحكة من نجّاري الشارع.

أمران لا يتوقّف عنهما: العمل والسّخرية؛ لذا لا يمكن تقدير عمره، ولا القبول بشيخوخته، وقد وصلت سخريته

ذروتها في اليوم الثّالث من رحيل زوجته بعد مرضها الطّويل؛ فبعد انتهاء مراسيم اليوم الثّالث (كسر الفاتحة) أي الإعلام بانتهاء مراسيم العزاء عليها، قدته من يده إلى بيته، وفي الطّريق سألته:

– ماذا ستفعل الآن يا خالي؟ لازم نشوف لك حل.

– عندك حل قوله.

– تتزوّج؟!

–(يضحك)... موافق بشرط؟

– ما هو؟

– اخطبْ لي امرأة لا تمرض ولا تموت!!

– ها؟! هذا صعب جدًّا؟

– إنت ما بحثت!! ابحث أوّلا وستجد واحدة، هذا أكيد!! النّساء أكثر من الرّجال!! روح ابحث وخبّرني.

أكملنا بقية الطريق بالصمت.

وعلى الرّغم من كثرة أمنياته بالزّواج، خصوصا من امرأة مصريّة لأسباب يذكرها بصراحة أمام الجميع، إلاّ أنّه لم يتزوج بعد رحيل زوجته (سلامة)، اكتفى بالحياة الطيبة

مع امرأة طيّبة.

مددت يدي مرّة في جيب ثوبه فأمسكها وظلّت عالقة:

- كيف تميّز بين فئات النقود الورقيّة وأحجامها متساوية وأنت لا ترى أصلا؟ !

- النسوان يميّزنها!!

ظلّ يتابع العالم بأذنيه، يقرّب الراديو مائلاً من وجهه، يصغي للكلام، ويعبر به الفراغ الطّويل إلا ظهر يوم الجمعة! الراديو «يخترب»!

عبد الله رمضان حسن يوسف، خالي، وجدّتي مريم خالته الوحيدة .

حبيب

«.. فلما استوى جسد «معراج» للغوص على اللؤلؤ تزوّج وقفز في «المحمل»، سفينة الغوص. لم يكن يمشي على اللوح الممتدّ من اليابسة إلى سطح السفينة جسراً كما يفعل غيره من الغاصة بل قفز من اليابسة إلى صدر السفينة. شاب في عينيه بريق اللؤلؤ وبهجة أوّل العرس. مَنْ يترك امرأة بخضابها في أوّل العرس وأوّل الغوص على اللؤلؤ فيها؟ رأيته يغوص مثل جنّي في البحر بجسده الصغير النحيل الأسمر. ولفرط سرعة غوصه وشقّه للماء بخاصرته حين العودة إلى السفينة ما كنّا ملامين لو صدقنا أن لمعراج ما للحيتان من طبيعة الغوص وأن جسده الأسمر لا يبتلّ بالماء. رأيته يطرد في أعماق البحر بعد أن يتخلّص من ثقله «الحجر» المثبّت في قدمه. هو أسرع الغواصين وصولاً إلى قاع البحر، يشعل السفينة حيوية ويزيد من همّة البحارة الأقوياء. وعلى الرغم من كلّ ذلك كاد يغرق مرتين في أسبوع واحد لولا رعاية الله و«سيب» بطل من أهله يسحب حباله في الوقت الفاصل بين الموت والحياة. في المرّة الثانية

بينما كان يستريح قليلاً مال برأسه وتوسد ماء البحر فسبح إليه غواص يستريح جواره وأسند رأسه. انبطح السيوب الأقوياء على المجاذيف المتينة وأمسكوه من تحت إبطيه ورفعوا جسده الصغير إلى سطح المحمل والدم يسيل من أذنيه وهو بين الوعي والإغماء. كلّما رفعوه رأوا ابتسامةً في وجهه. يتوقف النزفُ، يهدأ فنسأله عن الابتسامة فيقول: «وأنا في قاع البحر رأيت زوجتي في خضاب العرس تُقبل نحوي فأبتهج. أنظر إلى خضابها وأنتظر اقترابها وأنسى الهواء وأنسى أنّي في قاع البحر». يتعجب البحارة من ذلك لكنّهم يصدقونه فطالما رأوا في هذا البحر كثيراً ممّا لا يمكن رؤيته على اليابسة. يقولون له: ستعود إلى عروسك قبل أن ينمحي خضابُها».

كلّما نشطتْ ذاكرة «حبيب» عمّ والدي سردَ من زمان الغوص على اللؤلؤ ومن البحر قصصاً وغنّي لنا أغانٍ متمثلاً ومقلداً أصوات النهامين والمغنين. يمدّ صوته بالآهة أحياناً:

- «آآآه. علي زوج فاطمة خير العروس الخاتمة».

وقد يقول وينشد ما لا نفهمه أو نحاول فهمه وتفسيره خصوصاً عندما يكون الغناء لوحدة الغواص ولتلك

النجمة الرفيقة في السماء ونشدان العودة للزوجة المنتظرة وللديار أو الراحة:

- «**شوك شوكي واللوق لوقي**

يانجمة سهيل تلكلك فوقي

وياالله وياالله. »

«الشوك» شوق، وشوكي «شوقي» و«اللوق لوقي» ما يليق بي وأستحقه. و«نجم سهيل» يحبه الغواصون فهو العلامة على برد البحر والتوقف عن الغوص. و«تلكلك» تلمع. وهذه الأغنية رفيقته حين فقد بصره. يكررها فيسمع البحر ويرى النجمة.

وربّما تجاوز الحكاية كلّها والأسماء ولا يقول منها غير مَثلٍ أوقول فيه حكمة وتجربة في الحياة: «عليك بالبلح اليبر لو كان يريور». أي عليك باللحم المتماسك حتى لو كان لحم سمكة القرش. وكأنّ تحقيق الرغبات تستحق المغامرة والتعب والخطر.

الغواصون أوّل ما يصابون في عيونهم ثمّ آذانهم ثمّ يداعي الجسد عضواً عضواً على قدر التعب. غادر حبيب الغوص لأنّه ما عاد قادراً على الرؤية في قاع البحر. عاد

للعمل على اليابسة قلافاً في لياقة غواص. ضعف بصره أكثر فترك القلافة وصار يصنع «قباقيب» خشبية ينتعلها المصلون في ميضأة المساجد. توقّف بصره كلّياً فلاذ بذاكرته يسرد وينهم ويغني أغاني الغوص ومواويله. البحر الذي يوصل الجثث إلى الشواطئ لا يقبل مَنْ لا يقوى على الرؤية في قاعه فيأخذه إلى اليابسة أيضاً. فعل ذلك بكلّ الغواصين ولا استثناء في البحر.

البحر عين، اللؤلؤ عين، نجم سهيل عين والخضاب في قاع البحر عين.

اسمها «بت ناصر»

لا رأي لامرأة تأتي من خارج البيت الكبير، لا رأي لها في تيسير أموره، قضاياه، المعارك الصّغيرة، قرار وجبة اليوم ومقدارها، العلاقات، الدّعوات، مراسيم الزّفاف إن وجدت، مراسيم الوفاة، الشّكوى، لا شيء من ذلك، لكن يمكنها المساهمة في إسكات طفل يبكي بهديّة صغيرة (بيضة مسلوقة) أو كنس الدّار، أوإنجاز عمل خفيف آخر: إطعام الدجاج وفراخها.

رحمة بت ناصر؛ الزّوجة الثّالثة للقلّاف العتيد حبيب، لم أسمع امرأة تناديها باسمها، أسماء النّساء لا تشغل النّاس في الحيّ، وحين ترحل امرأة نسمع اسمها لأوّل مرّة جوار قبرها، يعرفه الجميع لحظة موتها، نسمع الإمام يلقّنها عند قبرها، يقول اسمها بصوت يسمعه الجميع: يا رحمة بنت ناصر، اذكري العهد الذي فارقتنا عليه... نُطق اسم المرأة بعد موتها أيسر وأخفّ منه في حياتها.

تجاوزت بت ناصر مهمّاتها عندما بادرت باحتضان طفل واحد من أطفال أمّي في (برستجها) الذي تنام فيه

مع القلّاف حبيب، ينام الليل عندها وترعاه، ويساعد في شؤون البرستج، وربّما أعدّ(القدو)، ينقع (التّتن) حتى يلين، ويصبح ماء النّقع أصفر مخضرًّا، يعصره بيده الصّغيرة فيسيل ماؤه على ساعده، ويضرم نارًا صغيرة، يضع الجمرات فوق رأس(القدو) ويغطّيه ليحميها من السّقوط بغطاء معدنيٍّ (بادكير) يفعل ذلك مرّات إذا طلب منه قبل أن يفرّ منها إلى البحر... لم يكن عالمه في البيت.

بعد العشاء يعمّ الظّلام في البيت كلّه، والرّؤية في حدود موضع(الفنر)، الضّوء حوله دوائر لا تتجاوزه كثيرًا، يصخّ الحيّ كلّه حتى نكاد نسمع صوت الهدوء، تنام البرستجات الثّلاثة إلا برستج بت ناصر تنسى ثلاث نساء الظلمة فيه، هذا وقت العتمة والحكايات. هنّ صديقاتها، تجمعن على شرف(القدو) الّذي يتقاسمنه بينهن، هنّ لا يستعملن مصطلح(صديقات)، ولا نعت أو صفة تعرّف ما بينهن.

تعتم النّسوة الثّلاث على صوت حركة الماء في(القدو)، ودخان التّتن والحكايات(خرّافات)، يتناوبن على(القدو) وعلى المفاجآت في حكايا (نرجس) بصوتها الهادئ وملكات السرد، تغري بالتّعاطف مع الضّحيّة ومحبّي الخير، وتشحن المصغيات على أصحاب الشرّ. يسمينها (خرّافة)ويجمعنها

على(خرّافات)، كلّما أنهت نرجس قصّة، هتفنَ بها: هل من مزيد... تبتسم، تشفط نفسًاً عميقًا من(القدو) ثمّ تبدأ: صلّوا على النّبي محمّد، فتتغير العَتمة في (البرستج) وتنسى النّسوة الثّلاث الوقت، ينسين أنّ الطفل في مرقده يصغي لهن، للحكايات، قد شبك يديه خلف رأسه، ينظر في الضوء الخفيف على سعف سقف البرستج، فلا ينام إلاّ على صور الأبطال ورائحة التّتن وصوت نرجس وأماكن من دخان.

يزورها رجل أسمر في مسافات زمنية متباعدة، له لهجة لا تُشبه لهجة أهل الحيّ، يجلس إلى جوارها وربّما شاركها تدخين(القدو) تبدو سعيدة جدًّا بمجيئه، فتسأله عن زوجته الفارسيّة وعن أولاده وأحوالهم، وأحواله معهم، لكنّها لاتنطقُ اسم واحد منهم. هو (علي) ولدها من زوج سابق، تبادله الزّيارة فتصطحب الطّفل معها، يرى أحفادها، يرى حفيداتها لا يرتدين المشامر، لا يغطين شعر رؤوسهن، ثيابهن لافتة وجميلة، ويتحدثن مع الذّكور بحريّة، في أيديهن نقود كثيرة. يعيشون في بيت من الحجارة، لا سعف في؛ بيت فيه امرأة واحدة فقط! أين بقيّة النّساء!؟ بيت جدرانه مطليّة، الكهرباء فيه كلّ مكان في مدينة لا بحر فيها، لا نخيل لابساتين، النّاس فيها جِيء بهم من كلّ

مكان، عالم جديد وغريب على طفل يأتي من بيت من سعف النّخيل، لا يتواصل مع بنات الحيّ، ولا يراهنّ لابسات الجديد إلا ذات عيد...! بقي صامتًا، كسولًا، يحاصره نوم في أوّل الصّباح، وهو الذي يظنّ أنّه لو أراد- لخفّته- أن يمشي على موج البحر لفعل. صديق الأسماك الصّغيرة في صباحات بحر الحيّ، يطعمها ما يبس من خبز البيت، محصور في غرفة كثيرة الضّوء، قليلة الحياة، الأصوات فيها تبقى محصورة، في حين تلتقي في بيته الأصواتُ كلُّها، يسمع صوت أمّه، جدّته، عمّته وأخوته، ولو كان في آخر زاوية من البيت، ماذا يفعل النّاس في هذه المدينة الكتومة الميّتة؟

يعودان إلى الحيّ في سيارة ولدها آخر النهار، فلا يدخل بيته، يركض إلى البحر، يصل إليه قبل أن تدخل بت ناصر البيت، يخلع ثيابه، يرميها خلفه ولا ينظر إليها، يرمي بنفسه في البحر، يغسل غربته، ويرطّب وحشته، ماذا يفعل النّاس الذين لا بحر لهم، ولا بساتين؟

لبت ناصر ضحكة طويلة طالما أرادت أن تتكلّم وهي فيها، ولها - إذا اختلفت مع القلاف حبيب، ورفع صوته في وجهها- بكاء طويل أيضًا... بت ناصر لا تخفي ضحكتها مهما علت، ولا تكتم دمعتها مهما صغرت. لها علاقة جيّدة مع جدّتي مريم، طالما هي تدرك جيّدًا ماذا على المرأة القادمة من خارج البيت أن تفعل، تنادينها جدّتي بودّ: بت ناصر... فترد:

- يالله جيت...

وحين هُدم بيت السّعف، واستقلّت بت ناصر في بيت جديد يجمعها بالقلّاف العتيد حبيب وولده من زوجته الأولى، صارت سيّدة البيت، وبقي اسمها (بت ناصر)...

الحَصير

عندما قيل لجدتي مريم عن خطبة ابنة أختها لرجل مسنّ قالت وهي تنجز شؤون البيت الكبير: يالله. الله كاتب أنها تتزوج البقية من هذا الرجل. الله يطرح لها البركة.

قال رجلٌ من الحيّ إنّ زوجته مريضة ما عادت قادرة على تفقد شؤونه، وأنّ أولادها كبار. خطب فاطمة البنت الصغيرة لجدي الحاج رمضان. وافق جدي فوافقت. صار الحاجان المسنان يلتقيان كثيراً، يجلسان على حصير جوار بيت العروس بثوبيهما الأبيضين. القهوة وقليل من التمر تكفيان لكلام طويل على سيرتي قلاف عتيد ونجار منهك بشارب مصبوغ. يطول بهما الجلوس يغرفان من ذكريات فيها أسماء وحوادث مشتركة. يمدان أرجلهما فتنحسر الثوبان إلى منتصف الرجلين. كان الحاج يوسف يضغط على رجله اليمنى يخفي آلامها. ينظر في وجه الحاج رمضان ويصغي إليه. لا يليق بزوج حديث الشكوى.

انقضت أيام الزواج الأولى وطُوي الحصير. ما عدنا نرى العروس، لا نسمع أخباراً ولا أحاديث نسائية تهمس

عليها كما يحدث عند كلّ زواج. شهران ولا شيء عنها بالمرّة.

فلما انقضى الشهران بدأت تزور بيت والدها. جلست على عتبات السلم الخشبي القريبة من أرض حوش البيت وحولها صديقات ينظرن إلى انتفاخ ظهر قدمها أولى علامات الحمل وهي تخفي فرحها مرّة وتبالغ في استحسان كلامهن مرّات.

ملأت البيت بالأطفال. رأيتها كلّما ألّمت بها مصيبة لجأت إلى جدتي مريم تبسط لها الحياة وهي تغسل ثيابها في طشت ولا تنظر إليها.

غائب

غاب أصدقاء جدّي فغاب عنه الكلام.

حدثني صديقه الحاج محمد علي مال الله الذي يجيد القراءة والكتابة قال: «الحيّ واقف على ثلاثة رجال إن ذهبوا ذهب: القلاف عبد الحسن نوح وجدك الحاج علي وأنا». ذهب الثلاثة وبقي الحيّ ميتاً.

لم يكن من الإنصاف أن ينتظر جدي الكلام طوال اليوم على أمل أن يقترب منه أحدٌ ليفتحه معه فلا يجد أحداً. يريد أن يتحدث مع أحد ليخرج على هذا الصمت والغياب الطويل وهو الذي كان يمسك يد أحدنا، يستدلّ به الطريق إلى مقصده فيملأ الدرب بالضحك والسرد من دون سؤال. المشي عنده مفتاح السرد وبهجة الحضور. فلما فقد بصره صار السرد عنده مشاهدَ العيون. ينتظر الكلام الجديد على كرسي قرب حديقة البيت ونحن نمرّ به، نتصنّع الانشغال. ينتظر إنساناً يوقظ ذاكرته ولو بسؤال خفيف. وكانت لدينا الأسئلة والوقت ولم نسأله اسهاماً منّا في غيابه.

ما رأيتُ جدتي مريم تتحدث معه كما يفعل الأجداد

والجدات في هذا العمر. يلوذون ببعضهم البعض، يتحدثون متجاورين، متلاصقين، متجادلين، يستفز كلّ واحد منهما الآخر في معركة صغيرة. تلك المعارك التي تُخمد فيها الجدة الجد فيصمت وينسحب بابتسامة الأنذال. ما رأيت جدي أيضاً يقصدها في الكلام إلا مروراً سريعاً. يقول لها خبراً صغيراً وهو يمشي مثلما يمشي الكلام. رأيتُها تخبره سريعاً وهو يشرب شايه الصباحي ويقلّب كوبه، يستعجل برده ويُسرع من خفض حرارته فلا يردّ عليها بغيركلمة «آية» جمع آيات وتعني «نعم» في لغته.

رأيتهما يتشاجران، يرمي حاجاتها خارج برستجهما فيدخلني خوف كثير. بينما يتحرك جدي والبيت يضجّ بصوته ساعة الشجار، رأيت جدتي مريم تقف رافعة رأسها وقفة المجادل القوي.

كان جدّي يدّخر شيئاً من ماله. فلمّا صار من المال وفرة قرر السفر لزيارة ضريح الإمام الحسين في كربلاء. منعت جدتي حدوث ذلك وأن بناء بيت للعائلة أولى من الزيارة حتى لو كان القصد كربلاء. طلبت منه مساعدة أبي الذي كان يدّخر ماله لشراء أرض وبناء بيت عليها للعائلة. اخترق صراخهما الجدران المصنوعة من سعف النخيل

«الرادات»، فوجدنا جارنا رجل الدين الشيخ أحمد مال الله في وسط حوش البيت بسروال عليه إزار وقميص قطني وقحفية. وكانت جدتي قد ربته وأخاه «حسن» صغيرين بعد موت أمهما. يضحك ويقول مستنكراً:

- ما زلتما تتشاجران وأنتما في هذه السن؟!

استأنفَ الضحك. يعرف القصة جيداً. تهدأ جدتي بمجيئه فهذا رجل يفهمها ويعرف مزاجها ويعرف العاقبة. بينما يلوذ جدي بصمت مَن غُلب.

تزوّج جدّي من جدتي مريم وأنجب ولداً واحداً فقط «عيسى» وكان الرجال من جيله يملؤون البيت بالبنين والبنات. ولصدقه ورفضه الكلام على الناس مهما كان ولقلّة كلامه وقوة ذاكرته أصبح الشاهد المعتمد في قضايا الطلاق لرجل الدين البصير والمأذون الشرعي السيد هاشم الطويل. كلّما حان موعد تطليق امرأة ناداه يجلس جواره، يصغي لخطبة الطلاق، ويحفظ الأسماء. ولا يقول للسيد الطويل عندما يفرغ من تطليق امرأة غير «غفر الله لك»، ويبقى كلّ شيء في باله: الأسماء والزمان والمكان وسياق الحدث.

الحفيدات -في عهده- لا يدخلن المدرسة النظامية،

لا موسيقى ولا غناء. ساعد في ذلك أن البيت بلا كهرباء. حدثني أخي «كريم»،الحفيد الذكر الأوّل في البيت قال: «كنت صغير البيت كلّه، يأخذني جدّي إلى منجرته الصغيرة في سوق المنامة. أنشغل بما يفعله وبالمارة على اختلاف جنسياتهم وأنشطتهم فلا أشعر بالملل. إنّها السوق. ومرّة تفاجأت بالرجل الإيراني الذي يسكن في شقّة بالقرب من المنجرة يعطيني بيانو صغيراً من البلاستيك بقوائم أربع فأخفيته عن جدّي. ولأنّي أنام في البرستج الذي يسكنه مع جدتي مريم أدخلت البيانو فيه وأخفيته بين قناني ماء الورد «القرابيات» الخضراوات المصفوفة تحت سرير جدّي «السجم». ساعدني الظلام المستمر في البرستج الذي لا نوافذ له وضعف بصر جدّي في إخفائه. لكنّي لم أنم تلك الليلة. ماذا لو قام جدّي يبحث عن شيء فوجد البيانو تحت ظهره؟ لو وجدته جدّتي؟ هذا ذنب كبير. نهضت قبل الشمس بقليل، أخذت البيانو الأزرق، خرجت به ووضعته جوار بيت بائعة الحليب «أم سعيد». تركته بسلام لمَن يجده. ارتحت كثيراً وتأسفت على هديتي في وقت لا أحد يهب الأطفال هدايا. توجهت إلى دكان جدّي وأنا هادئ البال. كان عمري ست سنوات».

وكما أخفى «كريم» البيانو، أخفى نفر من البيت: أختي الكبرى فاطمة وأمّي وأبي وجدتي مريم سرّ تسجيل أختى الثالثة «منى» في المدرسة الحكومية «سمية الابتدائية للبنات» عن جدّي. نجحوا في صمتهم وفي درسهم. بعدها صار دخول أخواتي للمدرسة جهراً.

ظلّ يستيقظ باكراً حتى بعد أن أغلقَ منجرته الصغيرة التي ينجر فيها جالساً في سوق المنامة. يمرّ بنا الصبح نائمين فيقول جملته الشهيرة: «لو في النوم خير ما نامته الكلاب». يمرّ أوّل المساء فيسمع صوت التلفزيون، يفتح الباب بهدوء النَفَس، يقول «جالسين قدام الصنم». لكنّه لا يفرض شيئاً مثلما كان.

يذرع الطريق إلى منجرته الصغيرة جداً مشياً مرتين: مرّة في الصباح ومرّة بعد أن يتناول غداءه في البيت. يمشي ويده اليمنى مسبلة تمسكها اليسرى من الخلف. لا يتأتى ذلك إلا للطوال النحيلين كجدّي. ضعف البصر فضاقت الطريق. العين أوّل الطريق ووسطه وآخره وكلّ شيء فيه. المشي يوقفه البصر. صار يذهب مرّة واحدة في اليوم. وقد يسقط المطر ويبتل الطريق، وتختفي الحفر فيه، فينحصر في منجرته لولا جاره الحاج عبد الرحمن الذي يوصله مشياً إلى

البيت. يخبرنا جدّي كيف عاد إلى البيت مادحاً الحاج عبد الرحمن، يقول إنّه رجل طيب وصالح لكنّه قلّل من فرصة دخوله الجنّة. ما زلنا نعيد حكايته مع الحاج عبد الرحمن والطريق والجنّة ونضحك. الجنّة لِمَنْ سقط عليه المطر.

يعمل جدّي جالساً على الأرض أمام منجرته الصغيرة التي لا يستطيع الدخول إليها لكثرة ما فيها من خشب مصفوف على بعضه البعض يقول إنّه سوف يحتاج إليه في يوم ما، حتى صار أكثر من مشاريع جدي الصغيرة. وحين يفتح مصراعي الباب الخشبي لا يُرى إلا الخشب النائم منذ شهور وربّما سنوات. النجارون يعملون واقفين أمامهم طاولة العمل المتينة الطويلة «دزكة». لا نجار بلا «دزكة» فهي طاولة العمليات كلّها، وهي العلامة على حركة النجار وما يبذله من جهد، وكثرة العمل أو قلته لديه. وحين يكون العمل قليلاً يتفرّغ النجار لتجديد هذه «الدزكة» أو تنظيفها من طبقات غراء الخشب. غراء أبيض رائب طالما شبّه النجارون بياض المرأة به، فترى بعضهم يتسّلى بذلك ويتأخأخ «أخ أخ» عندما يسيل على الخشب الجديد. أمّا جدّي فيعمل جالساً، فيفترش الأرض، يحصر اللوح مائلا بين قديمه المتشققتين ويرجع ظهره للخلف بعد أن يضع

سنّ المنشار على علامة مكان النشر «النيشان». يشبه شخصاً جالساً في مقدمة سفينة خشبية. فإذا تثبت اللوح مكانه يبدأ نشره طولياً بالمنشار اليدوي. لا كهرباء في منجرة جدّي. طاقة جدّي هي الكهرباء.

وقد يحتاج انجاز ما في يديه أن يقف، فيضع الإزار حول سرواله الأبيض، ويهبط على خشباته، يتقارب لوحا الكتفين ويقفزان فيهبط قميصه القطني الرقيق في الموضع المطمئن أعلى ظهره ويأخذ شكل المجرى.

منجرة جدّي الصغيرة تحمل رقم (115)، قريبة جداً من فندق قديم جداً في المنامة «النخيل»، ومسجد اليماني، في حيّ أكثره من العجم الطيبين.

إذا كان مزاج جدّي لذيذاً يأخذنا إلى ابتسامة عتيقة جداً، ليست مخترعة ولا مؤذية، إنّما هي حدث -ولو لفظي- من سيرة شخص.

إذا كان مزاج جدّي رائقاً يبدأ فجأة بضحكة تنبيه لما سيقوله. هو المسنّ الوحيد الذي تسبق ضحكته كلامه، وكأنّما سمع الكلام قبلنا فضحك. يقول«ما بين عوّان وتتسمّت علينا بعد؟!» ويضحك ثمّ يقول «وبعد؟!» ويستمر في الضحك دون أن يقول أنّه «أنا» المقصود. وكنت

طفلا لم تستوِ مكانة الحروف ولا مكانها عندي فأحرفها عن أصواتها أو أستبدلها بحرف أو أخفيها. كان الكلام شطر بيت شعر عامي « ما بين عدوان وتتشمّت علينا». فكيف صار؟!

إذا كان مزاج جدّي حلواً سوف يقطع صمته بالكلام الخفيف مثل كتاب صغير ووحيد في رفّ طويل.

في أيامه الأخيرة صار يرى شخصياتٍ تاريخية توفاها الله مثل الخميني فيتحدث لنا عنها. بعدها دخل مرحلة صمت كبيرة ليست طويلة، الصمت فيها لا يشبه صمت جدي القلاف. لكنّها تشبه الغياب الأكيد حتى نسي ما بقي له من الكلام ونسي وقائع الطلاق والأسماء والمكان ونسي ذاكرتنا الصغيرة، قصصنا، فكاهاتنا، مغامراتنا، قصائدنا الكربلائية بتحريفاتنا وألسنتنا التي لم يستوِ صوت الحروف فيها بعد: ما بين عوّان تسّمت علينا «ما بين عدوان تشّمّت علينا».

إذا كان مزاج جدّي للكلام سوف يقول لي قصّة صغيرة أبطالها من الحيّ. كنّا نهمّ بالخروج من بيتنا، يدي في يده. ضحك! عرفت أنّه سيقول شيئا: «لم تكن معكسة (كاميرا) المصور أحمد عبد الله الماضي تنتج صورا واضحة ،

حتى كدت أمنع من السفر إلى العراق لرداءة تلك الصورة لولا تدخل مسؤول الجوازات في ميناء المنامة «الفرضة» آنذاك «هاشم الشيوخ». فلمّا تكررت الشكوى من رداءة الصور اشترى معكسة جديدة أخرى أمريكية الصنع من أحد الأشخاص الذي كان يدور بها في المنامة، يعرضها للبيع. كانت صورها واضحة جدا. إلا أن الماضي تفاجأ أن هذه المعكسة التي اشتراها من أحد الأشخاص مسروقة من الكومبني « شركة النفط- بابكو». وعندما علمت الشركة بوجود المعكسة عند الماضي لم تستردها ، ولكنّها طلبت منه معرفة شخصـية البائع، السارق الذي حاكمته وطردته من الكومبني».

قال ذلك جدّي فدونته جانباً، ووجدتني أطلب المزيد عن المصور أحمد الماضي ولم أتوقّف حتى كتبت سيرته ونشرتها. كان الفضل لجدّي، لضحكته تسبق حكاياته.

رحل من دون كلام. كان ينتظر واحداً منّا يمرّ جواره فيكمل غيابه بالكلام. رحل دون أن يكمل الغياب. وكنّا نقطع الدرب في الحيّ معاً، يدي الصغيرة في يده أستزيده فيروي.

قارئ القمر

ينتظر أن يمرّ به واحد من أحفاده ليقرأ عليه، وكان من قبل يقرأ القمر...

يجلس الحاج محمّد علي مال الله فوق مفارش قطنيّة بيضاء في مجلس بيته، يمدّ رجليه، يضع إحداهما على الأخرى، وفي حضنه كتاب قد هبط عليه بعينيه، هذا النّجار المسنّ واحد من قلائل يقرؤون ويكتبون في الحيّ: الحاج أحمد العفو، جعفر بن سلمان بن يحيي، جعفر الحدّاد، الحاج مكّي بن عبدالله السّتراوي، الحاج حيدر بن عليّ، الحاج أحمد النّشيط، الحاج عبد العزيز الأدرج، المصوّر أحمد الماضي، السّيد حسين الغريفي، وآخرون، أخذ القراءة عن أبيه (مال الله)، الذي كان قارئًا ممهّدًا للخطيب في الحسينيّات، يجيد القراءة في كتاب(المُنتخب في جمع المراثي والخطب) لفخر الدّين الطّريحي، المشهور بـ(الفخري) بأنغامه الخاصّة في السّرد أو الشعر.

بيت(مال الله) الكبير تحرسه ثلاث نخيل: في أوّله، ووسطه، وآخره، وياسمينة عظيمة تتوسّط الحوش، تجمع

(عموتي) بعض أزهارها وتضعها في يد أمّي فتشكرها، وتترحّم على والديها. للمجلس بابان، الأوّل يصله بالطّريق، والثّاني يفتحه على حوش البيت، وأربع نوافذ من الخشب والزّجاج الملوّن، ورواشن، ودورة مياه قريبة منه. فوق المجلس نخلةٌ قيل إنّها حُسدت فلا يستوي فيها رطب، وكلّ عام حين تزهر النّخيل، ويستوي الخَلال فيها تعاد قصّة هذه النّخلة، ورطبها اللذيذ، وقصّة حسدها وحاسدها.

تزوّج(آمنة بنت أحمد) فأنجبت ولدين، يفصلُ بين عمريهما عام واحد، فلمّا صار عمر حسن سنتين، وعمر أحمد سنة توفيّت، فاحتضنتهما جدّتي مريم إلى جوار ولدها عيسى حتى كبرا فلم يشعرا بفقد الأم، ولا أعرف سببًا آخر حدا بجدّتي ألا تنجب غير والدي عيسى: رعاية ثلاثة أطفال وبيتين، وشؤون نسوتها، والحيّ. كلّما عاد والدهما شكرها، وصار يذيع شكره لها جهرًا بين أهله، ويسرد لأحفاده: ماذا كانت تفعل مريم؟ لولا مريم لضعت...!

تزوّج من امرأة أخرى، وأنجب ثلاثة أطفال ملأوا البيت حياة، فلمّا كبروا تزوّجوا، وغادر بعضهم البيت الكبير، وغادر آخرون بالموت، فعاد لسيرته الأولى: وحده في البيت الكبير، لا يؤنسه غير الكتب، ينحني عليها، يقرأ ما

تيسّر منها، ويهزّ رأسه ورأيه. أكلت الكتب عينيه، وضعف بصره، فاستعان بمرآة محدّبة من الجهتين، يمرّرها على السطر، صارت له عين ثالثة، الحركة بطيئة والمعنى واحد.

تخلّى عن البيت، غرفه وحوشه وسطحه ونخيله، ولاذ بالمجلس ينام فيه، ويقرأ، ويصمت كثيرًا كأنّه يصغي لضجّة البيت، صار المجلس بيته، يمرّ به أحفاده يحملون له الأطعمة، وبعض المستلزمات، كلّما أحضروا له شيئًا تركه في كيسه خلفه حتى تجبّلت الأكياس وتراكمت على بعضها البعض، واحتلّت مكانًا من المجلس، وكلّما زادت دفعت بمال الله نحو باب المجلس...!

قلت له مرّة:

- كيف حال صحّتك أبو حسن؟

- هل سمعت قوله تعالى: (ومنْ نعمّره ننكّسه في الخلق)

- طبعًا!!

- يا ولدي لو قرأتها(ننجسه) لكان هو حالي الآن، أرى باب الحمّام، وليس بيني وبينه غير نيّة دفع الباب لكنّي لا أصل إليه إلا وقد فعلتها في ثيابي!! (يضحك) ماذا تقول الآن: ننكسه أم ننجسه!!؟

يحبّ التمثّل بالشّعر، وترديد الأمثال في المواقف اليوميّة، وكثيرًا ما تمثّل بقول الإمام الشافعيّ:

النّاس داء دفين لا دواء لهم والعقل قد حار فيهم و هو منشغل

إن كنت منبسطا سمّوك مسخرة أو كنت منقبضًا قالوا به ثقل

وإن تعفّفت عن أمواهم كرما قالوا: غني و إن سألتهم بـخلوا

وإن تعرّيت قالوا: لا جمال له إن تلبّست قالوا: قد زها الرجل

وإن تزهّدت قالوا: فيه منـقصة و إن تصوّفت قالوا: كلها حيل

لقد تحيّرت في أمري وأمرهم لا بارك الله فيهم كلّهم سفل

وإذا حدثت مال الله عن الهبوط على القمر قال: كذب... بعدها يسوق جملة من الأقوال المأثورة، ومن تأويل الآيات ما يكذّب الهبوط على القمر، وهو إذ يكذّب الحدث لا يمنع حدوثه في المستقبل لكن بسلطان العلم .

حريص على الوقت، وضبط ساعته على التّوقيت العربيّ كلّ ثلاثة أيّام تقريبًا، رأيته مرّة بجوار الشاطئ قبل أن يدفنه جشع التّجار وغباء الهندسة، ينتظر غروب الشّمس، قال: «حين يختفي قرص الشّمس تكون السّاعة الثّانية عشرة بالتّوقيت العربيّ». وعندما أُبعد الشّاطئ،

وصار المشي إليه صعبًا، طلب من حفيده محمّد أن يكشف له لحظات الغروب.

أمران لم يتخلَّ عنهما مال الله حتى آخر حياته: التّوقيت العربيّ، والقراءة. وربّما ذهب ليلاً إلى بيوت أصدقائه الفلّاحين من (بيت خميس)؛ ليعتم في ثلّة فيهم شباب فيوقف الأحاديث، يقول لهم « بسنا من الهدرة»، يخرج كتابًا أحضره معه من البيت، ويطلب من أحدهم أن يقرأ على الجميع.

تقدّم به العمر، وصار يجلس في منتصف المجلس، يزيد قليلاً، و الأشياء والأكياس المغلقة خلفه تحتلّ نصفه الآخر، وتدفعه نحو الباب. ضعف بصره أكثر، وصار يصعب عليه القراءة بالعيون الثلاث، فاستعان بالعيون الجديدة: أحفاده. يمرّون به في فاضل وقتهم؛ مرّة في الأسبوع للقراءة عليه، وكان من قبل لقوّة عينيه وبصره يقرأ ما في القمر.

وحين يقرؤون عليه ما تيسّر، يمدّ رجليه، يضع إحداهما على الأخرى وقد انحنى على الموضع الذي كان – من قبلُ– يضع الكتاب فيه.

عمّوتي

دخلت مريم «عموتي» الحيّ عروساً مثل كثير من النساء دخلن الحيّ زوجات صغيرات، غريبات، بعيدات عن أهلهن، منقطعات عن أماكن نشأتهن وذكريات طفولتهن وصديقاتهن. كلّ واحدة منهنّ امرأة جديدة لكنّها صغيرة. مثل طفلة يباغتها مزاجُ امرأة ولا ينفكّ عنها. كان عمرها ليلة زواجها إحدى عشرة سنة. تقول عموتي:

- «مَنْ يقدر أن يسرد لك التاريخ؟! دخلت سنّ الحادية عشر ليلة زواجي. كنت صغيرة. لكن لا أعرف أيّ سنة؟ أعرف أنّه في الأضحى وتقول أمّي أنّه اليوم الثامن عشر لكنّها أيضاً لا تعرف متى؟ لا تعرف السنة؟ رجلي «حسن» ربّما كان يحفظ التاريخ لولا أنّ الله اختاره. لا أدري ربّما. خضبتني امرأة من قرية السنابس يسمونها «بت مكي» لكنّي لا أعرف اسمها. وماذا تفعل بالاسم؟ الله يرحمهم كلهم مراحيم.»

فلمّا انتهى اليوم السابع من زواجها لملمتْ مريم حاجاتها القليلة والصغيرة استعداداً للذهاب لبيت زوجها،

تساعدها أمها توصيها بحسن العيش معه وتفقد راحته وطلبته كلّ حين. كانت العادة أن يعيش الزوج الأيام السبعة الأولى في «فرشة» في بيت عروسه الصغيرة تهيئةً لها لا له وتخفيفا من خوفها: ستكون مع رجل تراه لأوّل مرة. كان العرس بغتةً، كلّ حدث وسلوك فيه فجأة. لكن الفجأة الكبرى إصرار والد زوجها «عمّها» على الاستقلال في الطبخ والأكل هي وزوجها حسن:

– «عزلنا عمّي. قال اطبخوا وحدكم، كلوا وحدكم وإنّي صغيرة لا أعرف شيئاً في الطبخ ولا شؤون المطبخ. مطبخهم تنّورمن خشب له بابان، جواره نخلة قيل إنّ شخصاً حسدها فبار رطبها. في التنور أثافي لكلّ قدر أثفيات ثلاث والدخان فيه يحجب الرؤية. جاءتني امرأة تدعى «مريم» جارتنا وعلمتني كيف أطبخ. عرفت لاحقاً أنّها ربّت رجلي وأخاه بعد أن ماتت عنهما أمهما وهما يتيمان صغيران. صارت مريم أمّي. كلهم مراحيم. عرفت الطبخ منها. علمتني كيف تُصنع «فرشة» العروس. علمتني أيضاً كيف يكون لي رأي وكيف ومتى أقوله. عرفتني بالناس في حيّ النعيم تصطحبني معها أين ما تذهب حتى قالت زوجة ولدها الوحيد عيسى: لماذا هي فقط؟ فترد عليها: لديك

أطفال صغار يحتاجونك في البيت».

كلما دخلت «عموتي» بيتنا سبقتها أناقتها. المرأة الغريبة الأنيقة الصغيرة التي جاءت من بعيد أصبحت صديقة جدتي مريم. وصار لنا أن نراها كثيراً، وصار للمريمتين حضورهما في حياة الناس في الحيّ فرحاً وحزناً وما بينهما، تهبان وجوه النساء الجدّ والعزم على حياة هن كلّ شيء فيها. كانت وجوه النساء لا تموت. وعلى الرغم من عمق صداقتهما لم يتناديا يوماً بـ«صديقتي». الصديقات في الحيّ لا يمدحن بعضهن البعض ولا يتصارحن بالحبّ إلا بعد رحيل صديقة لهن. يسفر الحب عن وجهه أكثر في ساحة الاحتضار. الحبّ كفن الصديقة الراحلة.

لا تذكر «عموتي» تاريخ زواجها ولا تاريخ انتقالها إلى حيّ النعيم لكنّها تذكر جيداً ماذا حدث في العام 1975 عندما حلّت حكومة البحرين البرلمان بعد أن تغيب وزراؤها عن حضور الجلسات لمدة ثلاثة أسابيع بعد جدل طويل حول قانون تدابير أمن الدولة وفي يوم 26 أغسطس 1975 صدر عن أمير البلاد آنذاك مرسوم يقضي بحلّ البرلمان ومرسوم آخر يقضي بتأجيل انتخابات برلمان جديد لحين صدور قانون جديد. بعد الحلّ جرت اعتقالات

وخرجت المسيرات، وفُصل شباب من أعمالهم. هي تذكر الأجزاء الموجعة من ذلك التاريخ في كلّ بيت. تاريخ الوجع لا ينسى.

- «رأيت في سنة 1975 اضرابات واضطرابات في البلد. الصبيان أقالوهم من أعمالهم. حوالي 25 يوماً. سرحوهم. فصلوهم. فصاروا يلعبون في الشوارع قدام الأبواب: رجلي حسن بن محمد علي وأحمد بن جاسم نصيف وأخوه جاسم بن جاسم نصيف وغيرهم ما شاء الله كثير حتى الحداد عبد الله بن شرار منعوه من الذهاب إلى ورشته في سوق الحدادة. تجمعوا هنا أكثرهم في الشارع بين بيتنا وبيت أم عيسى يلعبون التيلة والدوامة يتسلون بالوقت المفاجئ. أعادوهم إلى أعمالهم لكن بعد ماذا؟ بعد الذي تاه والذي تاه».

جاءت مريم الحيّ بأناقتها في نفسها وفي المكان. قريبة ومحبّة لأولاد وبنات حميانها وحمواتها فصاروا يسمونها «عموتي» تدليلاً وتمييزاً وإشارة للحنان المحزون المخزون فيها. أحيت عموتي غرفتها بترتيب لا مثيل له في غرف المتزوجين في الحيّ. قد يحمل الغريب الحياة معه إلى غيره. حجزت السجم المرتفع عن الأرض كثيراً بستارة تخفيه

لكنّها لا تخفي زجاجات الزيوت المعطرة ولا المزهريات كلّها مصفوفة أعلى السجم جهة الرأس. مزهريات كتلك التي في ظلمة برستج جدتي مريم. حقائب السفر أسفل السجم. ساعات كثيرة على الجدار الشرقي ومكتبة فيها كتب زوجها وخزانتي ملابس تزينهما مرايا وأشكال طواويس. في الجدار الغربي نافذة مغلقة برفوف عليها مزهريات أسفلها طاولة وكرسي. باب الغرفة الذي ينفتح على حوش طويل غير منتظم المساحة، يضيق ويتسع، به نخلتان وشجرة ياسمين عتيقة وردها الأبيض في الغيم. النساء يعرفن كلّ بيت فيه شجرة ياسمين. كلّ ياسمينة تمتدّ في ياسمينيتها. والجهة الجنوبية من غرفتها أكثرها للمسبح هكذا يسمونه. مَنْ يدخل غرفتها يقع في سحرها فلا يودّ الخروج.

عند باب الغرفة تخرق عموتي آذان الفتيات الصغيرات على غير ميعاد، بإبرةٍ فيها خيط أسود. تترك من الخيط مقدار ما يتدلى في الأذن. تطلب منهن تزييت الموضع باستمرار وقد يبغي جرح الخرق ويستمر الألم وينغلق فتعيد عموتي خرقه من جديد. لم تتعلم ذلك من أحد غير أذنها المثقوبة أما حلاقة شعر الرأس ففي ساحة صغيرة أقصى شمال البيت. تفعل عموتي ذلك دون أجر. تفاجأت عندما قالت لي:

- «تسألني عن جدتك مريم؟ لماذا لا تسألني عن حلاقتي لشعر رأسك أوّل مرّة. أنت وأخوتك والجيران وأبناء وبنات حمياني. وخرقت آذان الفتيات بإبراة فيها خيط أسود وهن يصرخن من الألم. لا بدّ من ذلك فالفتاة جميلة بالتركية «حلق الإذن» خصوصاً في العرس. خرقت آذان حفيدات أم عيسى فاطمة وحميدة ومن بيت نصيف: جليلة وخاتون ومن بيت الميرزا: فاطمة وحصة وجميع بنات حمياني وهن سبع فتيات».

الرأي في البيت الكبير لها. عرس أو حزن الرأي ينتهي عندها. لم يحدث أن كان قرارها خائباً. الرأي جرأة.

رحل زوجها «حسن» فجأة فدخلها ما يدخل امرأة كان زوجها أماناً لها من الغربة والوحدة والحزن. وبعده بسنوات رحلت صديقتها جدتي مريم فصارت غريبة مرتين. عادت إلى بيت والدها في حيّها ومكان ولادتها وما لبثت أن رجعت للحيّ. بقيت فيه سنوات ثمّ عادت مرة ثانية إلى بيت أبيها. لم يعد أحد يحتاج إليها. لقد امتلؤوا بها. صارت وحيدة تعيش بين مكانين، الأوّل تحنّ إليه ولايسعها والثاني يعيش فيها ولا تصدّق أنّه ما عاد رحباً كما كان. قلبها في مكانين، كلما نزلت في أحدهما اشتاقت

إلى الآخر.

- «لكن الوقت لم يكن يسمح لي بالتعرف جيداً على مكاني الأوّل قرية «الماحوز» مثلما عرفت مكاني الثاني «النعيم». عشت في الماحوز إحدى عشرة سنة إلا أياماً قليلة. نقضي الصيف الطويل في بستان قرب بحر أبو غزال. لا أعرف المكان الأول كثيراً. لا أذكر منه إلا القليل جداً. إحدى عشرة سنة من عمري لا شيء. لا تعني لي الكثير وما حدث فيها لا أعدّه حياة. لم تصل علاقتي مع الناس هنا إلى العمق لأنّي طفلة. أنا فهمت في «النعيم» واستويت في «النعيم». هم أهلي وأم عيسى أمّي. أنا عدنت «النعيم». هنا قرب البحر والقلاليف صنّاع اللنجات والسفن. عمايرهم «ورشهم» تمتدّ إلى داخل الحيّ وفي بيوت النعيم. زوج عمتك الحاج مكي السترواي صنع سفينة من نوع «جالبوت» داخل البيت لوحده من غير مسعف ولا معين تحت العريش. وهي السفينة التي يستخدمها الغواصون على اللؤلؤ. فلمّا وصل مرحلة وضع الفتايل بين الألواح المانعة لتسرّب الماء «كلفاة» أحضر من أصدقائه القلافين ثلاثة أو أربعة. كنت أزور مريم أمّ عيسى فأراه يعمل «يقلف» في الجالبوت. فلما استوى وصار جاهزاً باعه بسعر جيد وضجّ

الحيّ بإخراجه من تحت العريش. هو قلاف ماهر، يصنع من قطعة خشب الساج «بدنة» مجسماتٍ صغيرة للسفن الكبيرة، يشتري المهتمين الواحدة منها بخمسين روبية. كنت أذهب إلى البحر مع مريم أم عيسى نغسل سفرات الأكل المستديرة المصنوعة من خوص النخيل عن بقايا الأكل حفاظاً عليها من النمل. الماء المالح يزيل الدهون ويمنع تجمّع النمل. لا تذهب النساء إلى البحر لغير عمل. البحر جارنا لكن حياة النساء -هنا- لا نزهة فيها.

هنا في «النعيم» حياتي كلّها. ما غادرتها إلاّ بعد أن استرد الله أمانته في رجلي حسن فجأة. صاح: قلبي قلبي وسلّم الأمانة لصاحب الأمانة. هو عند الله. مات في حياة أبيه. عمّي. طلعت من غرفتي وهي فائضة بالأغراض والأواني والصحون «ستات» كما هي لم أستخدمها وحصالة صنعها لي رجلي مليئةً بالنقود ومزهريات كلّها ورد. ما لمست منها شيئاً. الابن مات والأب حيّ حرام أتصرف في أي شيء. الشرع يقول ذلك. طلعت بثيابي وطراحة ومسندين من القطن وماكنة الخياطة. الطراحة أعطيتها فقيراً. ماكنة الخياطة مكانها فما عادت عينايَ تساعداني على النظر. ليس فيهما ماء لكنّهما توجعاني.

كلمة قالها لي أخوه غير الشقيق لا تغادر قلبي. عندما طلبت بطاقة رجلي الشخصية. قلت له: البطاقة في درج الخزانة أحتاجها فقال: «لا تأتين إلى النعيم ولا تدخلين البيت». قبله طردني عمّي والد رجلي فلذت ببيت شقيق رجلي أصيح وأبكي فقال: «لا تبكين سوف تستقرين هنا في بيتي معززةً مكرمةً مبرأة الذمة وكلّ ما لديك في غرفتك يصلك». هو يظنّ أنّ زمانه سوف يبقيه. خطفه الموت خطفةً وراح. كل مذكور بفعله. كل مذكور بفعله. ليت رجلي أطاعني عندما قلت له نشتري أرضاً ونبني بيتاً. ليته أطاعني. راح ولن يأتي.

عندما طردني عمّي جاءت إليه أم عيسى من عائلة «أبوعلي» جارتنا، قالت له وجهاً لوجه: أساس البيت مريم بنت يوسف وهي حاضركم وغائبكم. الآن إن هي تغادر هذا البيت ولدك حسن مات. وما دامت موجودة هو حيّ ما مات». بقي قولها محفوظاً في القلب ولا يبدو لي أنّه نسيه. لكن كلّ إنسان بمذكوره.

استلم صاحب الأمانة أمانته. رحل شقيق رجلي بقيت مدّة في بيته معززة مع أم أولاده وهي امرأة طيبة خيرة. لكني غادرت النعيم كلّها إلى بيت أبي في قرية «الماحوز». يا

الله. دخلتها عروساً وأغادرها أرملةً موجوعة القلب مثقلة بالحياة أيضاً. غادرت الحيّ أحمل مزهريتي ورد. أنا أحبّ الورد منذ كنت صغيرة وسأظلّ أحبّه. عروس صغيرة لا يسمح لي بالذهاب إلى السوق. لا يسمح للناس الصغيرات بذلك وثمّة نساء لا يمكن أن يتخيلنّ أنّهنّ ذاهبات إلى السوق في يوم ما؛ لذا كنت أدس النقود في جيب جارتنا وأوصيها أن تشتري لي مزهريات من السوق. تندهش، تسألني: مزهريات؟ فأرد: إيه. مزهريات ورد. ترى النساء المزهريات في غرفتي فيسألنني عنها فأقول: رزق من الله. كانت الفتيات يصنعن مزهريات من القرطاس الملون وعلب الخوخ المعدنية مجاناً وكنت أساعدهن في شراء القرطاس وأمدهنّ به وبعلب الخوخ والخضار فهي طويلة تصلح لذلك. في برستج مريم أم عيسى أيضاً مزهريات لكن برستجها مظلم. هي تعرف أين المزهريات. كلهم راحوا رحمة الله عليهم. كلهم مراحيم».

في حيّنا لا ذهب ولا خضاب إلّا في عرس. صار مكان «عموتي» في الذهب. كلما وضعت امرأة حلق الذهب «تركية» في أذنها ليلة العرس ذكرتها. صارت سيرة من ذهب ومكانها مكان الذهب في أذنين. في مكانين. وكلّ مذكور بفعله.

مريم

«واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ »

لسيرة مريم ابنة عمران مكانتها عند النساء. يوم الخامس والعشرين من شهر صفر الحرام من كلّ عام يقرأن سيرتها وسياحة ابنها عيسى بن مريم. يجتمعن في المآتم والبيوت. تحضر الملاية بنت الحاج مكي المقربة جداً من جدتي مريم في ردائها الأسود المذيل باللون الأحمر لقراءة سيرة مريم ابنة عمران. وجه أسمر لا مكان فيه لغير الجد. نظارة طبية بإطار أسود، وصوت خافت جداً، وبراعة في القراءة وقوفاً في مآتم النساء. كلما قرأت هللت النساء مبتهجات بسيرة كلّها معجزات، بمريم تغتسل في باب النساء في عين السلوان المقدسة في البيت المقدس فتهبط سبعون حورية من السماء يحملن الأباريق والطشوت يغسلن شعرها ويرتفعن إلى السماء. تتلفت مريم فلا تعرف أين اختفت الحوريات.

- الله الله.

ترفع أصوات النساء بالتهليل والصلوات على محمد وأهل بيته على غير نظام. تستأنف الملاية القراءة فيستعضن

بالهمهمات مصليات مسبحات. يتقربن إلى الله بخيرة خلق الله من نسائه.

تغادر مريم عين الماء فيعترضها رجل في صورة تقي فتفزع: إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قبض جبرائيل عليه السلام قبضة من التراب ونفخ في جيب مريم فلما صعد إلى السماء حتى سمع تهليل عيسى عليه السلام.

– الله.

تقف بعض النساء إجلالاً لموقف غير عادي في سيرة مريم. فكلّ ما سيأتي في سيرتها من هذا الموقف. تمرّ امرأة صالحة تدعى أم السادة تصب ماء الزعفران المبرد بالثلج «شربت» وتدعو للشاربات بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

تحمل مريم ولا يبان حملها فالأنبياء لا يحملون في البطن لكن في الظهور. يجمع الشيطان أعوانه لفضح مريم وتضجّ القبائل بالخبر. تغادر مريم بحملها دمشق بعد أن علمت بمكان وضعها. فلما أصبح الصبح وكان يوم سوق رأت الحاكة يقبلون على بغال شهب فسألتهم أين النخلة اليابسة التي في أرضكم أرض كربلاء.

تضجّ النساء بالتهليل والتكبير وهن واقفات يرسلن سلامهن لمريم الذاهبة لولادة عيسى في كربلاء. تنتظر الملاية بنت الحاج مكي كثيراً لتتمكن من إعادة القراءة في السيرة. فهذه ساعة الدعاء وتداخل سيرة مريم بفاطمة الزهراء وعيسى بالحسين وأنّ يوم كربلاء بدأ منذ ذلك الحين وأن مريم ابنة عمران جليسة الزهراء في الجنّة.

تتناوب السيرةَ ملاياتٌ متمكنات يحضرن القراءة كلّ عام. تقرأ كلّ واحدة ما تيسّر منها. وعندما يفرغن من قراءة السيرة يتمّ توزيع الخبز المحلّى والبقل على الحاضرات جميعهن، مقتديات بمريم ابنة عمران عندما اعتزلت الناس مع طفلها عيسى وصارت تأكل الخبز وما أنبتت الأرض.

كان اسم مريم لا يضيع لأنّه فاطمة.

أمّون

في عصر جدّتي والمريمات، كانت النّساء ملاذ النّساء، الرّجال منهكون بتقطير الرّزق من أجسادهم، البيوت كلّها للنّساء، يلذن ببعضهنّ البعض، ولا ملاذ يشبه قلب أمّون. بيتها الصّغير : باب واحد ينفتح على فناء ضيّق جدًّا، نافذة واحدة، غرفة واحدة، يتّسع بقلبها لما في خاطر النّساء. حين تأتي النّساء عصرًا أوليلاً توقف بناتها الدّراسة وأنشطتهن الخاصّة، بينما يبقى الذّكور خارج البيت على دكّة دكّان الحيّ ليلاً لحين خروج آخر امرأة، وكان النّاظر يسأل: كلّ هذه النّساء في بيت أمّون!؟

في الفناء الصغير موضع تحبّ النّساء الجلوس فيه، وبخاصّةٍ جدّتي مريم الّتي طالما نعتت بيت أمّون جهرًا: «هذه البقعة عندي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها». ذات مرّة جلست فيها امرأة تُدعى«أم حبيب» فقالت لها ابنة أمّون الوسطى: «أمّ حبيب... النّسوان اللي كانوا قاعدين في هذا المكان بالذات كلّهم ماتوا»، فنهضت من مكانها تدعو الله أن يطيل في عمرها، بينما تبادلت الفتيات الضّحكة، وكتمت

أمّون ضحكتها حتى فاضت حمرة في وجهها.

تذرع أمّون المسافات بين بيوت صديقاتها بجسدها النّحيل، طويلة تعرفها النّساء من بعيد، ومن تسابق أفئدتهن إليها وهي في المسافات، كلّما دخلن عليها البيت استقرّت قلوبهن واطمأنت، كلّما دخلن عليها وجدن حكاية. تنتهي من صلاتها، تلتفت فتجد الأمّهات ينتظرنها، يحملن أطفالهن الرضّع المرضى إليها، تنظر للواحد منهم فتقول: «في حلقه شيء». تعالجه وهو في حضن أمّه، يصرخ، يفرغ ما في بطنه فيهدأ. لا تأخذ أمّون أجراً مقابل ذلك، لكنّها تنتظر منهنّ الدعاء لوالديها بالرّحمة، فلا تنسى الأمّهات ذلك.

تمرّ بأولاد صديقاتها، يحيّونها فيحمّر وجهها، فتعالج الحمرة بطرف عباءتها، تردّ التحية بصوت خافت فيه ضحكة الأم المبتهجة، وكانت أمّون قد ساعدت أمّهاتهم في الاعتناء بهم واحدًا واحدًا.

وفي يوم «حياة» كان النّاس قد تجمّعوا ينظرون إلى أثر صغير يلتصق بباب بيت أمّون الصّغير؛ بقايا لفستان محترق، قال شاب:

- رأيت فتاة تحترق، تفرّ بنارها إلى داخل بيت أمّون.

وبينما يحاول قريب لأمّون دخول البيت، يقرع الباب براحة يده بقوّة، قال:

- كانت جارتنا حياة تحترق، رأيت ناراً تركض.

قيل إنّ حياة طلبت من أختها أن تلبس فستانًا من فساتينها لمناسبة، فرفضت أختها طلبها، فهددت بحرق نفسها، لكنّها لم تكترث لتهديدها، فلا تحرق فتاة جميلة مثلها نفسها من أجل فستان، عادت تطلب الفستان، فأكّدت الأخت رفضها فسكبت حياة الكيروسين (الكاز) على نفسها وحدث ما حدث. وقيل إنّ شابًّا تقدّم لخطبتها فرفضه أشخاص في العائلة، وتمسّكوا بالرّفض، فأحرقت نفسها. وقيل إنّ أمّها أحرقت قلبها مرارًا، فأحرقت قلب أمّها عليها مرّة واحدة. ويوم فرّت بحريقها، لم تخرج أمّها لتراها، لم تخرج من بيتها أبدًا! أمّون ملاذ قلوب النّساء المحترقة، يلوذ بها قلب فتاة صغيرة يحترق.

الشاب إبراهيم الذي تزوّج حديثًا يطلّ منزعجًا من شرفة بيت أبيه بثياب النوم، تجاوره زوجته، مرتديةً روبًا أزرق به ورود ملوّنة، يصرخ :«ما الذي يحدث؟» فيردّ عليه مراهق : «حياة حرقت روحها»، فينزل بهمّة الشّباب، يجهّز سيّارته البيضاء.

انفتح الباب الصّغير، خرجت منه أمّون تلمّ حياة في حضنها، تمشيان مشية امرأة واحدة نحو سيّارة إبراهيم تأخذهما إلى المستشفى، ما كانت حياة تبكي، وجاءت الأخبار من المستشفى أنّها بخير، وأنّها قادرةٌعلى الكلام.

بقيت قصّة حياة تحرق الجميع بحروق لا يذهب أثرها، و ذلك الأثر الصّغير على الباب لن يُمحى، سيبقى علامة على أنّ قلبًا صغيرًا لفتاة جميلة ذكيّة لم يحقق أحد أمنيتها الصغيرة، فاحترق قلبها الصغير، سيذكر الأخوات والأمّهات والآباء أنّ الباب مفتوح وراء ذلك الأثر .

الذين شاهدوها قالوا: كلّما مررنا بالباب رأينا حياة تنظر إلينا صامتةً، تعذّبنا بنظرتها، وبالوهج المشتعل الخاطف يلوذ ببيت أمّون.

حدّثني إبراهيم الذي نقل حياة في سيّارته يوم الفاجعة إلى المستشفى، قال: «سمعت غولة من الشّارع أزعجتني، فخرجت أستطلع الأمر مع زوجتي من شرفة البيت، عرفت الحدث فنزلت أسهم في إنقاذها، كانت سيارتي الأقرب إلى باب بيت أمّون. ركبت حياة سيّارتي، ترتدي عباءة سوداء، ومعها أخت لها وأمّون ورجل من الحيّ يدعى سلمان، كان الطّريق إلى المستشفى- بالرّغم من سرعتي- مقلقًا جدًّا

يزيده بكاء حياة الذي ما توقّف، لصق الفستان على جلد جسدها فلا تعرف أيّهما الجلد، وأيّهما الفستان، حقّق الشرطة معي في الحادثة، فاعتذرت لأنّني لم أكن هناك أثناء الحدث. هذا قدر الجميلات، لقد انتحرت قريبة لي في المنامة لأنّ عائلتها رفضت خطبة شاب لها، أحرقت نفسها، ماتت، .كانت جميلة، لن تصدق جمالها».

ظلّ إبراهيم يعيد القصة بأشكال مختلفة، ويؤكّد لي في كلّ مرّة أنّ الجمال متعب، قال: «اكتب في كتابك عن (مريم) وصديقاتها: جمال المرأة نقمة».

تروي الابنة الصغرى لأمّون: «كان الوقت ظهرًا، ولفرط حرارة الجو نأخذ قسطا من الراحة، ننام قليلاً، فلا تزور النّساء أمّي في هذا الوقت، انفتح باب البيت بطريقة مزعجة وعويل وصوت غريب، فقفزت أمّي أولاً وتبعناها أنا وأخي، رأينا نارًا تدخل البيت في وسطها جارتنا حياة، فهجمنا على النّار نطفؤها بأكفّنا، نسينا الماء، نسينا ما يفعله النّاس في مثل هذه الحال: أن نغطّيها بلحاف متين فتخمد النّار، نسينا كلّ ذلك. كان الوقت من نار، ولم نر غير أكفّنا ماءً . أحطناها، نسينا وجع الحرق في أصابعنا، توقّف الخوف كلّه، أخذنا نختم على نَفَس المواضع من جسدها حتى تخمد

نارها، تمكّنا منها، وحياة ترتعش لحرارة النار وعظم الألم في جسدها الغضّ، قالت: هل احترق وجهي!؟ فقلنا لها جميعنا: لا! سمعنا أصوات النّاس عند باب بيتنا، وأحدهم يطرق الباب بقوّة. انطفأت النّار، لكن ليس في قلب حياة ولا قلب أمّي، أصيبت أمّي بحروق من الدّرجة الأولى في كفّيها، فرقدت في المستشفى إلى جوار حياة، أصيب أخي النّجار في يديه القويّتين، وأنا في يدي وأصابع قدميّ، دخلنا مركز(النعيم) الصّحيّ وغادرناه في اليوم نفسه، غادرت أمّي بعد خمسة أيام، عدنا جميعنا إلى البيت، وحدها حياة لم تعد، أيّة فاجعة كانت»!

كانت أمّون بنت عبد الله تمشي في سنتها التّاسعة عندما ألمّ بها مرض لم تُعرف ماهيته، أُحضر الطّبيبُ الشّعبي أحمد بن خميس من قرية (شهركّان) البعيدة لعلّه يعرفُ علّتها، وصار ينظر في صمت إليها، ويسأل أمّها عن حالها، فلمّا عرف أنّها في التّاسعة من عمرها، رفض أن تتكشّف عليه قبل أن يتزوّجها، رفضت الأمّ، قالت:«لا» وفي بالها ما حدث لابنتها عندما مرضت في سنتها الثّالثة، ويئست من علاجها حتّى قيل: «إنّها تموت» فأحضر نعش الأطفال إلى بيتها، ثمّ قامت من مرضها تحيي من حولها بقلبها. رأت

أمّها كلّ ذلك، وافقت؛ شرط أن يطلّقها بعد أن تشفى، لكنّ ذلك لم يحدث! وبقيت أمّون زوجة صغيرة لطبيب شعبيّ مسنّ، كلّما جاء إلى بيت أبيها هربت إلى بيت جارتها، فلا تغادره حتّى يغادر، بقيت على حالها، فلمّا صار عمرها خمس عشرة سنة استقرّت في بيتها، وأنجبت ثلاثة من أولادها، وحين بلغ عمر أصغرهم خمسة أشهر توفّي زوجها الطبيب، وظلّت أرملة صغيرة، تحاول أمّها في تزويجها وهي ترفض، فتتعلّل الأمّ: مازلت صغيرةً، وأولادك صغار، يحتاجون أبا يعيلهم ويرعاهم. ظلّت تحاول حتّى تزوّجت أمّون بأحمد بن مطر من قرية (دمستان) وكان متزوجًا ولديه أولاد، فأنجبت منه ثلاثة أولاد، ولما بلغ أصغرهم خمسة أشهر توفي بن مطر، وهي في الثانية والثلاثين، فلم تتزوج بعده.

صارت تربّي أولادها السّتّة، يسندها أخوها الحدّاد، وابنتها الكبرى التي أتقنت الخياطة وصار عملها مصدر رزق للعائلة، وهي التي دخلت في مواجهة مع عمها وخالها إثر قرار إدخال أخويها المدرسة، وقد نجحت في ذلك، لكنّ ضعف الحال، ومتطلبات الحياة جعلتهما يغادران المدرسة مبكّرًا ليلتحقا بالعمل.

كانت أمّون تأخذ أولادها خارج اليأس: «مدّوا

أياديكم للعمل لا للناس»، صار ذلك منهاج حياة لهم، ومن كان منهم صغيرًا أخذته في إجازته الصّيفيّة من يده لورش النجارة في الحيّ. اليدان للعمل، والوقت المهدور حرام، ولا شخص غير أساسيّ في البيت مهما صغر سنّه، تجاوزت بهم محن الحاجة، ومحن ندرة الطعام في بيتها: الماء المغلي المحلّى بالسكّر وفتات الخبز .

ما كانت ترتاح إلّا عندما تجد أولادها قريبين أكثر من الحياة، بعيدين أكثر عن الموت، كانت تكره أن تتساوى المسافة بينهما من أولادها.

أن ينكسر ظهرها من العمل، لا أن ينكسر خاطر واحد من أولادها في تحقيق رغبة صغيرة: أن يشتري، أن يلبس، أن يأكل، وأن يتعلّم.

كانت أمّون ظهر البيت كلّه.

حين أرادت أن تسافر لأوّل مرّة في حياتها، استعارت جواز سفر جارتها أم جميل، وقد أُثبت في صفحة المرافقين اسم ولدها، سافرت أمّون برفقة ولدها الصّغير(علي) وصار اسمه مؤقّتًا(صادق)، كانت جوازات النّساء بدون صور فوتوغرافيّة، ويشار في مكان الصورة بختم واضح (محجّبة).

ترافق أمّون إحدى حملات الحج الشهيرة ضمن فريق العاملين الأساسين في مطبخ الحملة، لا غنى لهم عنها، تذهب (زيارة وتجارة) وتعود راضية، مشتاقة لأهلها ولصديقاتها، ولبيتها الصّغير.

تقترب من المرضى، تطبّبهم، تهبهم حياة من حياتها، تراهم أطفالا وإن كبروا، رأت الموت كثيراً وخبرته في النّساء والأطفال .لا أحد يقدّر الحياة مثل أولئك الذين يرون الموت كشفًا، ورؤية عين. تذرع المسافات في الباصات العامّة إلى أختها كلّما أنجبت مولودًا جديدًا، تقضي حوائجها، تهب البيت طمأنينة الأم وتعود ظهرًا لتنجز حاجيّات بيتها، كانت تطبب طفلَيْ أخيها الحداد قبل أن يرحلا بسلام.

تلوذ بها جدّتي مريم إذا ضاق صدرها، تروي إحدى بنات أمّون: «تأتي أم عيسى(مريم) فلا تأكل ولا تشرب، لكن يصير بينهما كلام خاص في المواساة نكاد لا نفهمه، كلام نظنّه ناقصًا، أو سقطت منه كلمات وعبارات، لكنّه مكتمل عندهما... كيف؟ والله لا أعرف، ولا واحد من العائلة يعرف، فهما صديقتان قديمتان جداً في الحلو والمرّ، وما نقص من كلام إلاّ وله قصة بينهما، أو مرجع تعود إليه وتسنده، وتكمل نقصه أيضًا، أعني ما نظنّه نقصًا، وحين

تجلس أم عيسى لانراها تضحك، وكلامها قليل جدًّا».

الطّفلة الصّغيرة التي كانت تهرب من زوجها إلى بيت الجيران، تهرب إليها النّساء يشكين همّهن، همّ أولادهن، أزواجهن، والبنات يشكين من آبائهن. زوجات من خارج الحيّ وربّما من خارج البلاد :زهراء من إيران، أختر من الهند، فاطمة من العراق، أمينة من الإحساء، تصغي إليهن، تأخذهن إلى التألّق في قلبها فينسين من أين أتت كلّ واحدة، وينسين الشجارات في الحيّ بسبب أطفالهن واللمز بمكان المولد: يالعجمية، يالمحمرية، يالهندية، يالحساوية، يالـقطيفية، يا الـ......، أمان في بيت أمّون.

تمرض أمّون وترحل، تمكّن المرض منها هذه المرّة، وكانت من قبلُ تغالبه، تدفعه بخزانة أرواح الذين طبّبتهم ورعتهم وأخذتهم إلى الحياة.

أمّون الثانية

حوض مربع الشكل في وسط فناء البيت، فيه نبتات صغيرات لم يزرعها أحد ولم يرعها أحد. هذا الحوض المهمل، غير المسيّج يسمّونه حديقة، تجلس أمينة عند حافتها كلّ صباح، تغسل الرز. تسميها نساء الحيّ «أمّون». تتربع أمّون عند حافة زاوية واحدة للحديقة، لم تغيرها قطّ وتبالغ في غسل الرز. تسكب ماء كثيراً، تختفي يدها في بياض الرز ولا تتوقف حتى تظهر لها علامة: أن الماء لا يتغير لونه. تقول لها النساء: يا رب يزرع الرز في حديقتكم. فترد: إن شاء الله فالماء كثير وما يسقط من حبات الرز كثير أيضاً والصلاة على محمد وآله أكثر وأكثر.

مرّ خمسون عاماً مات فيها زوجها المقعد، فقدت توازنها في المشي، نسيت أكثر أسماء النساء، ولم يزرع الرز. قالت لها جدتي مريم: يا أمّون لم يزرع الرز وأنت عروس.

نافعة

أوّل علامات الفجر في الحيّ الضوء ورجلٌ يحمل عصاة تكشف له عن دربٍ كلّ شيء فيه صوت. رجل مسنّ علاّمة في أصوات الأشياء، يحمل في يساره ساعة منبه سويسرية ثقيلة بالتوقيت العربي. ولفرط الهدوء في الصباحات يسمعه الذين بين النوم واليقظة، يرتّل: «والفجر وليال عشر، والشفع والوتر، هل في ذلك قسم لذي حجر. .». الحاج أحمد أبو حبيبة المسنّ البصير حافظ القرآن وخزانة الشعر الكربلائي وبائع الزيت أوّل علامات الفجر، يخرج وحده للصلاة في مسجد سيد حيدر وقد عقد غترته على رأسه فلا يتدلى منها شيء.

علامة أخرى امرأة يلتمّ عليها الليل ويلمّها سواد من الثياب. لن يميّز أحد حركتها حتى تمرّ أسفل أحد مصابيح الحيّ، مصابيح الغريب. ماذا تفعل امرأة ضئيلة قبيل أذان الفجر بقليل في حيّ المساجد محصورة فيه الرجال؟

اسمها معصومة بنت هاشم. يسميها الرجال والنساء «بت هاشم» حتى غاب اسمها. ينادي الناس في الحيّ امرأة

متزوجة باسم أبيها «بت فلان» إذا لم تنجب، أو كانت من بني هاشم وليس زوجها كذلك.

«بت هاشم» أم وجدّة، ذات رأي يعتدّ به الرجال ولا يحيدون عنه. لا يُعرف عنها أنّها ترددت في أمر. مقادير الطبخ في البيت والمأتم لها. قريبة جداً من جدتي مريم وتحبّها حبّاً جماً. لم تتوقف عن العمل يوماً واحداً إلاّ بعد سقوطها الأخير وكسر حوضها. وكان إذا دخل إحداهن همّ لجأت إليها تتقوى بها على همّها وتصرعه بها. المرأة الخائفة تلوذ بها، المرأة المنزهقة، المرأة التي يتبعها صوت شخص، يحدثها في أذنها بالقصص، المرأة المريضة، المرأة المحسودة، المرأة المنظورة بعين، المرأة المستضيقة، المرأة المتضررة، المرأة الممسوسة بالجنّ، المرأة المظلومة المهضومة في بيتها، المرأة التي تكتم ظلامتها فتمرض، كلهن يلجأن إليها أكثر من غيرها فتوعدهن خيراً فهي «بت هاشم» سيّدة من بني هاشم وفيها من البركة ما ليس في العوام من النساء.

تجلس المرأة بين يديها أو ربما خلال مرورها بها في الطريق، تخبرها بما بها وتغادر سريعاً. وقبل أذان الفجر تعدّ بت هاشم ما سيعيد الاطمئنان لتلك المرأة ويزيل عنها الخوف والأذى ويقضي على التابع. تضع «النافعة» في طاسة

صغيرة نقش في داخلها آيات من القرآن الكريم وتصبّ عليها الماء وهي تتمتم بالآيات حتى إذا صار الخليط ماءً لبست عباءتها واستعدت للخروج والقضاء على أسباب ما حلّ بالمرأة.

سميت بـ«النافعة» لأنّها تنفع التي عُملت لها، وقيل سميّت كذلك لأنّها مكونّة من كلّ نبات وأوراق شجر نافع: حرمل، حنظل، كفّ مريم، وجريد النخيل الأخضر تجمع وتطحن معاً، وتحضر من الأحساء خضراء اللون تتغير قليلا قليلا للبني ثمّ الأسود إذا صارت عتيقة. لا يهمّ لونها لكن المهمّ المرأة التي تقوم بطقوسها. وهي قديمة جداً من زمن «أبو أبوك وأم أمك» هكذا أرخها حوّاج ظريف في المنامة.

تقصد بت هاشم المكان الذي حدثت فيه الواقعة للمرأة: عتبة بيت، ممر ضيق، بالوعة مفتوحة، أرض مغتصبة من أهلها حسب قصة المرأة. فإذا وصلت المكان قبل انتهاء أذان الصبح تنتظر. وما إن ينتهي المؤذن تواري طاسة «النافعة»بطرف عباءتها الأيسر فلا يصحّ أن يراها أحد. تمدّ يدها اليمنى في النافعة وتبدأ برشّها على الأرض كمَنْ ينثر حبّاً للطير في حركة نصف دائرة وهي تمشي في الطريق

التي مشت فيه المرأة في ذلك يوم الكارثة تقرأ:البسملة ثمّ تقرأ (**قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شرّ الوسواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنّة والناس**). فإذا انتهت أعقبتها بالمعوذة الثانية: البسملة ثمّ تقرأ (**قل أعوذ برب الفلق، من شرّ ما خلق ومن شرّ حاسد إذا حسد...**) ولا تسكت حتى تصل عتبة باب بيت المرأة وترشّ ما تبقى من النافعة. تختمها بالصلاة على محمد وآل بيته الميامين. وهي اذ تفعل ذلك تعرف مقدار ما ترشه على مسافة الطريق بحيث يتبقى شيء منه للعتبة الأخيرة، باب المرأة التي ستدفع ما تيسر لبت هاشم.

تتابع بت هاشم حالة المرأة لكن لا تسألها حتى تلتقي بها مصادفة في مناسبة في الحيّ، في مأتم نساء، في فرح، في بيت امرأة أخرى، تستفسر عن خوفها وتابعها فإن شفيت يعلو المديح والتبجيل، وإن لم تشفَ انتظرت بت هاشم أياماً بعدها تستبدل «العذرة» بالنافعة. وهي بيض وسكّر ودهن خالدي أخضر اللون، تضعها بت هاشم على عتبة باب البيت الذي أصيبت فيه المرأة. ولا شيء بعد العذرة.

المعلمة عصّوم والمعلمة حبّاب وطيّوب وأخريات يعملن في رشّ النافعة ووضع العذرة لكن لبت هاشم

عليهن درجات وتفوقهن بنسبها لبني هاشم وتفرد رأيها بين الرجال.

وقد توضع النافعة في ماء كثير ويغسل بها الشخص، ويشرّب منها قليلاً. يحصر الماء المتبقي الذي سال على جسد الشخص في إناء كبير يسقى به الزرع ولا يسمح له بالذهاب للمجاري. وربما رُشّت لرجل في الحيّ فإذا علمت النساء به قلن: «كتوا ليه نافعة».

عندما ترى جدتي مريم صديقتها بت هاشم ترشّ النافعة في الحيّ تضحك، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد تختصرها في قولها: لحوّل لحوّل.

إيمان جدتي وتجربتها في الحياة يجعلانها هادئة في الكوارث. حدثتني أختى قالت: بينما كنت أقرأ لها ما تيسّر من دعاء شهر رمضان الكريم في كتاب قديم سمعنا صراخاً وأصواتاً من بعيد. قيل حريق في بيت فتوقفت وهممت بالنهوض لأرى فمنعتني، قالت: أكملي الدعاء يسكت الحريق. فما أنتهيت من الدعاء إلاّ والناس قد أخمدو الحريق قبل وصول سيارات الإطفاء بكثير. قالت جدتي: هل رأيت؟!

ذات صباح توقفت جدتي عند باب البيت وقد بدا واضحاً أنها غاضبة جداً، قالت: مَنْ هذه التي عذّرتنا في هالصباح؟! ثمّ أردفت: لو شئت لأخبرتكم باسمها. يالله. لكن لديها حقّ في وضع العذرة. تشاجرنا قبل أيام وسمعت مني ما يوجعها فخافت كثيراً وغادرت المكان مفزوعة.

عبثاً يحاول البعض معرفة اسم المرأة صاحبة العذرة. جدتي لن تقول اسمها مثلما لا تسمح بذكر أسماء الأشخاص والنيل منهم في غيابهم. لن يتجرأ أحد على الخروج على ذلك. لن يسمعوا منها غير دعائها الأثير:

- «يا الله بحسن الخاتمة».

الصديقات

صديقاتُ جَدتي. هنّ لا يستخدمن تسميةً مثل صديقات، قريبات، زميلات، جارات، ولا أخوات. لا اسمَ لما بينهنّ من علاقة ولم تسرد إحداهنّ مشاعرها إلى الأخرى إلاّ لحظةَ الرحيل. هي مرّة واحدة لا تكرار فيها. هنا. الموت يجعل الناس يقولون الحبّ. صديقات جدتي يبحن بمشاعر الحبّ لصديقاتهن مرّة واحدة فقط في الحياة. هذه الفرصة الوحيدة تأتي لحظة الموت أو قبله بقليل. وعلى الرغم من معرفتهن بذلك كنّ ينتظرن تلك اللحظة. ليس الموت لكنه الحبّ. الموت لديهن لحظة اعتراف بالحياة، كلما ماتت صديقة انشغلت بقية الصديقات بما قيل فيها ولها وعنها وعليها في تلك اللحظة.

في «النعيم» قليل من الحبّ المعلن في الخفاء وكثير من الحبّ يظهر بعد الموت. حكمة في الحيّ: لا يأتي الحبّ إلا بعد التجدد. ولا مجدد أعظم من الموت.

غادرت جدتي الحياة وظلّت الصديقة الأخيرة مريم وحدها تستحضر وجوه الصديقاتِ طوال حياتها تلقي

عليهنّ حديث الحبّ وتسرد الصفات والنعوت فيهن. تفعل ذلك كلّ حين في كلّ يوم صبحَ مساءَ تستضيء بهلالين رماديين أسفل عينيها. وهي علامة النساء مرادفات التعب الذي لا نيّة لتوقفه. لا يسكت التعب إلاّ بإعلان الحبّ. ولا يُعلن الحبُّ إلا بعد الموت.

مريم بت يوسف آخر الصديقات وآخر الحبّ المؤجّل. صار كلّ شيء لها وحدها: كلامهن، صورهن، وجوههن، مشيتهن في الحيّ، نعوتهن، ذكرياتهن، حضورهن، روائحهن، مكانهن ومكانتهن ولم يرها أحدٌ منشغلة بغير حضورهن. صرن يأتين إليها مثل ذكريات رائعة لا تأخذ الشخص إلى الماضي ولا يتصل به حتى قيل: «صديقات مريم».

هنّ لا يستخدمن اسمَ «صديقات».

الرَبو

تقول جدتي مريم وهي تعمل في الصباحات بأيدٍ ثمان: «من الحين لين بَس». يبدأ اليوم من «الحين» ولا ينتهي لكثرة ما فيه حتى يوقفه الوقتُ نفسه «بس»، لا التعب. وهي تفعل ذلك تهب الوقتَ المنهك مرحَ الحكيم وضحكته. وربّما ضحكت حتى يغيب صوتها في نَفَسها. أنظر إليها، أنتظر عودة الصوت فتسبقه دمعتان خاتمة الضحكة وتباشير الصوت. تُبالغ جدتي في الجِد، ولم أعرف إنساناً جاداً مثلها. لكنّها تمنح الوقت ضحكتها أيضاً، وتبالغ فيها حتى يقول الصوتُ «بس».

ينقطعُ نَفَسُها، تُغالب الموت، نوبة ربو جديدة، تبحث -بما بقي لها من نَفَس- عن بخّاخ الربو يمينَ يسار. لا مكان معين له، لا تهتم بذلك؛ لذا كانت فرص الموت أقرب إلى جدتي مريم من فرص الحياة. وحين تجده يكون الموت عند البلعوم. تضغط وتستنشق الدواء بعمق فتعود الحياة في عجل. اعتدنا على ذلك وصارت مغالبة الموت مشهداً عادياً جداً. أدركنا: جدتي تلعب بالموت. أدرك ولدها

عيسى الأمر مبكراً فجعل إحدى بناته تنام معها في غرفتها تسعفها وتغالب الموت معها إن نزل. لكنّها طالما رفضت ذلك وتقول:

- بعد.. إذا جى الموت جى.

ولا تزيد على ذلك كلمة: إذا أتى الموت أتى. لكنّ ولدها لا يقبل منها ذلك حين يشتدّ بها المرض فتوافق على مبيت واحدة من حفيداتها معها على مَضض وبشيءٍ من السخرية وبيان ضعف الإنسان.

فلمّا أمّن عيسى عليها أمينةً ليلاً غيّر الموت موعده وانتظر نزول الصباح حيث لا حارس ولا مغالب له. لم تخرج كعادتها مبكراً وهي التي تشرق قبل الشمس وتهب البيت الحياة. تفقدتها أمّي فألفتها لا تتحرك والدواء بعيد عنها. لبست عباءتها وخرجت في عجل تلوذ بأقرب الصديقات. حضرت جارتنا «أمّون» تسبق والدتي في المشي والنيّة والقلق وقد أحمّر وجهها خوفاً وقطّب جبينها لعظم انزعاجها. جلست جوار جدتي، وضعت يدها تحت كتفيها وأجلستها وهي نائمة ساكنة رأسها للخلف وصارت تناديها وتكرر:

- أم عيسى. أم عيسى.

ثمّ ضمّتها إلى صدرها وبكت، قالت:

– أخذ الله أمانته. ماتت أمنا.

غالبت أمّي صدق الخبر. قالت ما يشبه المترددين في قبول أمر الموت العظيم وتَهَدَّجَت في الكلام. لكنّ أمّون الصديقة والجارة خَبرت النساء الراحلات على مغتسل مقبرة الحيّ وتعرف الموتَ في النساء أكثر من الحياة.

ضجّت النساء لرحيل جدتي مريم وهي في سكينة لم تعهدها قطّ. إيه. مَنْ يترجّل عن الثقة في الحياة يهدأ وتحيا سيرته. تقدّمت مريم بنت يوسف «عموتي» بالكلام على صديقتها وقالت ما لم تسمعه جدتي مريم منها فيها قطّ على حياتها. في حينا الموت يجعل الناس يقولون الحبّ. صديقات جدتي يجهرن بمشاعر الحبّ لصديقاتهن مرّة واحدة فقط: قبل الموت بقليل أو في الساعات الأولى بعد الموت. ضجرت «عموتي» لموتها وحيدةً ولامت البيت كلّه فقيل لها إنّها ماتت في الصباح، وإنّها كانت تقول:

– إذا جى الموت جى.

كانت «عموتي» تعرف ذلك عنها، وتعرف أيضاً أنّها الصديقة الأخيرة. لكن معنى الموت في كلام جدتي «اذا جى

الموت جى» يأتي لأوّل مرّة.

انقطعت سيرة الخضاب في العرس. فقد العرس أبهى طقوسه ومعانيه وفرحه. اكتفت العروس بحناء العجين لكلّ واحدة شكل. وكانت العروس الجديدة تُعرف من لفتة الخضاب في يدها.

لا خضابَ ولن تنتظر الصغيراتُ ما بقي في الفنجان. انقطع الخضاب وبقي الخطاب عليه وكانت جدتي مريم بنت محمد السقّاي أخذته عن تدعى « مريم» عن امرأة ضاع اسمها.

*** صدر له:**

- **نسيج العمامة/** سيرة السيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي. (إصدار محدود، لدى المؤلف فقط) البحرين 2014.

- **لولوة.. سيرة الحلو والمرّ/** سيرة لولوة بنت محمد، المؤسسة العربية للطباعة والتوزيع، البحرين 2010.

- **إذاعة البحرين.. سيرة الكلام/** سيرة وتاريخ، وزارة الإعلام، البحرين، 2008.

-حوّام/ رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008.

- **فرقة البحرين للموسيقى.. نوتات التأسيس/** سيرة وصور، وزارة الإعلام. البحرين 2007.

- **إذاعة البحرين.. صورة الكلام/** وزارة الإعلام 2006.

- قندة/ رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006.

- **ضريح الماء/** مجموعة قصصية، مشروع النشر المشترك بوزارة الاعلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

* **مشروع «ذاكرة البحرين البصرية» الصادر عن «بيت البحرين للتصوير» للمصور القدير عبد الله محمد الخان:**

- **تمر البحر.. من سيرة القرية في البحرين/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2015.

- **عبد الله الخان.. معجم العين/** سيرة المصور عبد الله محمد الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2013.

- **دفتر اللؤلؤ/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2012.

- **ديموقراطية 73.. الشعب في التجربة/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان للمجلسين التأسيسي وبرلمان 73. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2010.

- **المحرق.. وردة البحر/** إعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان لمدينة المحرق بين العام 1945 والعام 2007، بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2007.

كَتبتُ نصوص هذه السيرة في العام 2013م بجهاز الآيفون.
وزدت عليها أربعة فصول وفقرات في الطبعة الثانية في العام 2015م بالأيفون أيضاً.

حسين المحروس

خاطت جدتي مريم حتى تعبت الإبرة في وجهها. كانت تقول «الخياطة غير عيون». وبغيرها صارت تنادي أقرب طفل من أحفادها يمرّ جوارها، تطلب منه أن يدخل الخيط في ثقب الإبرة. يفعل ذلك ببراعة المستعجل ولا ينتظر. يقفز بعيداً مثل عصفور في أوّل الصباح. تضحك.

حسين المحروس



سيرة الخضاب والنسوة اللواتي ضاعت أسماؤهن



info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com
P.O.Box 65317 Manama, Kingdom of Bahrain

